

مي زياده

ابتسامات و دموع

أو
الحُبُّ الألماني

للروائي الشهير
فريدريخ موكس مولر



مؤسسة نوفل شرم

سترويت. بستان

جميع الحقوق محفوظة للتأثير

الطبعة الثالثة

١٩٨٩



© مؤسسة نوافل شرم

شماره تلو فون: ٢٥١٨٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤
شماره فاكس: ٢٥١٨٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤ • ٢٥١٧٩٤
عنوان: ١١/٢١٤٤ • سبيل روسته • لاهور



فريدريخ ميس مولر

الى العينين اللتين أطبقها الموت
قبل أن ألتئمها . الى الإبتسامة التي
لا أعرف منها إلا خيالها . الى الاسم
العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون
أن تملأ عينيّ الدموع . الى الطفل الذي
رحل الى خالقه ويتسم في عاطفة الحب
الأخوي فحرمني من حنوّ الأخ وقبلته
وابتسامته ودمعته : الى أخي
الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى

ميّ

مقدمة^١

أراني راغبة في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير الى كيفية تعريب هذا الكتاب ، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي «الحب الألماني» Deutsche Liebe باسم «ابتسامات ودموع» الذي عرف به لدى قراء العربية . وأن أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغير يبدو في كل جملة تقريباً ، ومن زيادة أتيت بها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول .

على أني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلاّ ويأخذ محيطي بالتلاشي ، ويسقط القلم من يدي لأحدّق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطو عليه أسرارها . ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظلتني يومذاك سماؤه ردوت حولي أصواته . هاك حفيف الأوراق ، وتصفيق الأجنحة ، وتفريد الأطيّار على الغصون . ألافاصغ الى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار الصنوبر صعوداً الى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات

(١) كتبت ميّ هذه المقدمة للطبعة الثانية الصادرة عن مطبعة الهلال ١٩٢١ .

يسرةً وعينةً ، شرقاً وغرباً . وأنظر جانباً الى صنين وقد أثقلت
ذروتَه ثلوجٌ حوّلتها انعكاس الأشعة ثغراً نورانياً يُسرُّ الى صدر
الفضاء بما توصله اليه أصداءُ الغبراءِ من شكايةٍ وتأوه . تنبثق من
جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة ، مستطيلة ، ناشزة ، وتظل
في انتقاصٍ وتصاغرٍ على انسجامٍ وحسنٍ درايةٍ حتى تسجد بواقي
الصخور منها على الشاطيء . كأن أعالي صنين أنفذتها برسالة
الى البحر لتعود بالجواب عليها . والبحر ، آه اترى ماذا يقول
ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوءٍ ودلال ، كأنه أرجوحة الأثير
تهزها أيادي آلهة الهواء لتنوم فيها طفلاً عجيباً دهشت بحاله
السموات وافتسنت الأرضين بغرامه؟

نعم ، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان ، ذلك المصيف الهنيء .
نحن في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل
والفنادق . والجماعات التي تباينت أفرادها علماءً وتهذيباً وارتقاءً ،
وتنافرت عاداتٍ ومشاربٍ وأطباعاً ، ها هي تعيش تحت سقف
واحد ، وتتبع في أمور حجة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل
جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرائب ، ومحاذاتهم أياماً وأسابيعٍ
وشهوراً ، والجلوس وإياهم حول مائدة واحدة مرةً بعد مرة ،
وحدةً تنشأ وتثبت بالتكرار ؛ فضلاً عن خبرة موفورة لدرس
أخلاق الناس ، وتمرينٍ ميسورٍ في أساليب المعاملة والإرضاء .

بيد أني بعد الأحاديثِ المسلية والضحكِ والابتناسِ أظل
شاعرةً بفراغٍ واسع ، أظل متسائلةً ماذا يعرف أولئك

المتنادمون المتسامرون المغتابون ، من بعضهم بعضاً ، أظلم نائمة الى الوحدة والاختلاء تحت أشجار الحرج الصغير . لذلك سميتُ في أن يُبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نُضدت عليها كتب قليلة . وإنما دعي كوشي « الكوخ الأخضر » لأنني جللت جدرانها من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أفنان مخضوَّضبة حنتُ عليه ، وخضرة غضة أحذقت به من كل جانب . هنا تعرفت بمكس مولر وبكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تتكش في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقي فيض بهاها .

كنتُ شرعتُ أدرس الألمانية في القاهرة إبان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلاً . ولما تزودتُ بالكتب قبيل الرحيل أضفتُ إلى حقيقتي كتاباً ألمانياً لا غير ، هو « الحب الألماني » هذا . وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذتُ لها ذكورتُه ممتدحة أسلوب مكس مولر المشبع فكراً ومعرفة على سهولته ورشاقته . ونسبتُ هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف شاعراً بفطرته ووراثته رغم اشتهاره بالعلم والبحث ، وإلى كونه إنجليزياً بوالدته كما صار بعدئذ إنجليزياً بزوجته وباستيطانه إنجلترا أعواماً طوالاً . فكان له من إجادة اللغة الإنجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قويٌّ في تجريد جملة الألمانية من التطويل والصعوبة والابهام

الملازم لها غالباً عند كتّاب الألمان ، لا سيما العلماء والفلاسفة .

أنشأتُ أتصفح الكتّاب في عزلة «الكوخ الاخضر» ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكّني روحه الشعرية الفلسفية وأرهفتُ ذهني ، فتمكّنتُ من الاحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من معنى المفردات كثير . وما أتيت عليه إلا وعدتُ أراجع قراءته مرّاتٍ حتى ابتهجتُ بمحاسنه نفسي المنفردة . وعلى قصر باعي بالعربية التي كنتُ نشرتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل ، ومع اني لم يكن لديّ معجم ألماني ، استعنت بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة ؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والانشائية لما أفصحت عن حركات النفس بسواها . وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل « المحروسة » في الشتاء التالي ، قال : « أسألك ذاتي ساعة أقرأ ذيل « المحروسة » أنتِ ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية ؟ » . في هذه الكلمة ، التي تخال تلقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي إنمّا نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ، ليس عمّا يشعر به هو الكاتب ، بل عمّا نشعر به نحن القراء . وكيف لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد أطلع على خفاياها وبسطها لنا وللعالمين . وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية

سحر وبراعة ، لا يُقصرُ على الوصف ، بل هو مهبطٌ وحيٌّ
للنفوس الحساسة .



كان ذلك في صيف ١٩١١ وبني تيقظُ الفتاة الأولى ،
واستفسارُها الصامت ازاء المسائل الكونية والعمرائية
والروحية ، وأعجابُها المنتبه المتحفز للاهتمام والتحمس ؛ وبني
كذلك خجلُها وحيرتها وترددها .

وكنت كثيبة . كنت اكتئب لغير سبب ، واكتئب
للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً . حتى
إذا احتميتُ بحمي الطبيعة والقيت عليها اتكالٌ روحي رافقت
الكآبة حبي واتكالي . الكآبة خاتمة شعور الإنسان ازاء الجمال
والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والكراهة والحب ،
والفوز والخذلان . إليها تنتهي حركات التأثر في جميع حظائر
النفوس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام
الدامس . أهي ناتجةٌ عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم ،
وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها ؟ قد يكون . ولكن
الواقع ان التهنيد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر ، كما أن كل
عمر بشري يختم بإرسال الزفرة وإسبال الجفون .

كنت قبلئذٍ أسيرُ لا ألوي على شيء ، ان وقعت عيني على

شخص ، أو طرقت سمعي موضوع نظرت في هذا وذاك نظرة
استخبار سطحي . أما هناك فطَفِقْتُ أَلْقِي على نفسي أسئلة
منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء . من أنا ؟ ما هو موقعي
في الدنيا ؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث ، وتسخطني بعض
الوجود في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوه غيرها ؟
لماذا أحب هذه ولا أحب تلك ؟ لماذا ينفث هذا في روعي
وجوب احترامه فأسعد بتوجيه عاطفة جليلة إلى موضوع يليق
بها ، بينما ذلك الآخر لا يُلهمني غير الهزؤ والامتهان ؟ لماذا
يُفرحني الناس وأفرحهم ؟ لماذا يؤلني الناس وأؤلهم ؟ ومن أين
لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة ؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين
عنها أجوبة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي . وهكذا صار
كوخني الأخضر سجنًا اختياريًا ، وشرفته نافذة مفتوحة على
ميدان العجائب ، والفرائب وقد تسنى لي أن استعرضها
واتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع
أو مجيب .

الفكر ! ما أجدب الفكر إذا هو مُزج بطلاوة العاطفة
وخيّمت عليه أو شحة الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي
دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب
يضربُ جبهي ليُفسح له فيها وكراً فصار كلُّ موضوع ، وكلُّ

شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ،
ذهبية ، فضية ، رمادية تحوم حولي تارة ، وطوراً تتجثم في
متعاونة مع ما في الكتاب على ايصالي الى روح الإنسانية . فأكاد
اسمع دقات قلبها وصدى أنينها فأدرك أنها شقية يجهلها
واضطرابها وهمومها ، وأنه 'قدر على المختارين من بنيتها ان يتألموا
أضعافاً لأنهم السابقون إلى مقاتلة الجهول ، وكجميع الطلائع
يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمهم ،
ولا تكلُّ أقسامهم ، ويثابرون على تلئس السبيل في حالك
الظلمات ، ويسرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية
والثقة بتحقيق الآمال .



والطبيعة ! يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار
والصخور على الجبال والوهاد فرقصت هناك الأشعة وانسلت
هنالك الاظلال ! يا لحشوعها وقد تجمعت منازل القرى حول
قبة الاجراس المنتصبة كالمسلة ، بل هي قامت في الوسط
ككاهن مدء يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجئت حوله الرعية
خاضعة ضارعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوع في لبناني الجميل !
لقد تصرفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلة جديدة
وهيئة طريفة . فساعة تغرق الكائنات جميعاً في أوقيانس ضياء

يبهر الأنظار وينذهل العقول ؛ وساعة تزحف كتائب الضباب
المتراصة من أطراف البحار وتهجم فيالتق السحب المتكاثفة من
أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسط رواقها الرمادي ،
كان العالم في دوره السديمي . ويعتدل النور والحرارة يوماً ،
ويبرز روح التيقظ والكتان فتصبح ألياف كل نبت ، وكل قطرة
ماء ، وكل ذرة هواء ، شاعرة بسر الوجود الخطير ، تؤيد
بمركتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيانها ؛ ويخال الهواء
حساساً كقلب الوهان داوياً كالنحاس الجوف . وآناً تبدو
خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادي ،
وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت وربضت في مجاهلها
الأهوال باتفاق فجائي بين آلهة القدر . فيتولاني افتتان به ينقلب
الزمن والمسافة سائلاً متحرراً أو عباباً متموجاً يحملني تياره
إلى حيث لا أدري من عوالم الخيال ؛ شأن الحياة الإنسانية
الضعيفة الساذجة ، الإنسانية التي تجهل الغرض من تحركها
ووجودها ولا تفتأ تذوب شوقاً إلى بلوغ غاية تزعم الاحاطة بها
وهي في الواقع لا تعلم ما هي !

وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيالاً أثرياً منبعثاً
من البحر والجبال والكائنات جميعاً ؛ وكم عبدت الطبيعة
عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتبعين ،
أولئك الذين يقدسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحصوراً في
إله ، أو رمز ، أو إنسان ؛ وكم ملأت الدموع عيني شكراً

للحياة ، شكراً للطبيعة ، شكراً لجميع الموجودات ، شكراً
لهذا الكتاب الذي تنهذى بين سطوره خيالات اليأس والأمل
والبكاء والابتسام والحب والموت واللانهاية .

أظني قلت في مطلع الكلام أن القلم سقط من يدي ، وكان
ذلك وهماً . ها هو القلم يجري على الصفحات قليلاً قليلاً
مستحضراً تلك الساعات تبعاً كما تتعاقب الصور المتحركة على
غطاء المرشح ، وما الألفاظ سوى رسوم إيائية لحقيقتها . غير
أن النفس تدخرها ككنوز ثمينة لأنها كبيرة الشأن في تطوري
الروحي والفكري .

« الحب الألماني » كلا ، ليس هذا الكتاب حباً ألمانياً فقط
بل هو خلاصة بسببات الإنسان وعبراته . فسميته « ابتسامات
ودموع » . فإن كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها
على كل مترجم ، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص ، أمين
للصورة التي ارتسمت منه في نفسي .



انتشر الكتيب وكادت نسخه تنفذ منذ ثلاثة أو أربعة
أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة الترجمة .

لأنني وإن رأيت بسرور أنني أملت بروح الكتاب إماماً يكاد يكون تاماً إلا أنه كان ينجلني ويسوءني معاً اني أهملت طائفة من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الإغضاء عنها .

والآن أهدي اليك ، أيها القارئ ، هذه الطبعة الجديدة . لقد تقيّدت بالأصل معنىً وتعبيراً محاولةً إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغريبة والتنميق الشرقي . والألفاظ التي أكثر المؤلف من استعمالها مثل « حاولت » و « خيّل إليّ » و « ظننت » و « روحي » و « نفسي » و « قلبي » ، جميع هذه الألفاظ وغيرها وضعتها في أماكنها لأنها ضرورية للغة التذكار .

وستحبّه هذا الكتاب سواء أكنت معلماً أو متعلماً ، فيلسوفاً أو شاعراً ، سياسياً أو تاجراً ، سعيداً أو شقيماً ، كبيراً أو صغيراً . ستحيا فيه وبه كما حييت . ستسوء به وتتوحد وإياه حيناً فينتزعك من ميدان المزاحمة والمنافسة والحقْد والتهمك والحسد والإجهاد . ستتوحد وإياه مستدعياً ماضيك ، أو مفكراً في حاضرِك ، أو مترقباً مستقبلِك . أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرِك ومستقبلك

جميعاً في آنٍ واحد ، كائناً عمرك ما كان ، لأن العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة . بل يسير جامعاً من يأسه وآلامه وانتصاره واندحاره خبرةً وقوةً توصلانه إلى سبل جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه أن ينبه فيك الذكرياتِ الحلوة المرّة من مباحثات الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع ، وهي إرثُ بنو الإنسان أجمعين .

ميّ

العلامة اللغوي مكس مولر

كان مكس مولر عالماً من شيوخ والعلماء واستاذاً جليل الشأن طبقت شهرته الخافقين وكان له اليد الطولى في وضع علم اللغات وتسهيل الاطلاع على عقائد الأمم الشرقية . وهو ألماني المولد انكليزي الموطن ولد بدساو من دوقية انهلت سنة ١٨٢٣ وأبوه شاعر ألماني أورثه قريحته ومخيلته فامتاز من صغره بالذكاء وسرعة الخاطر وقوة الخيال حتى يكاد نثره يكون شعراً لما فيه من الصور الخيالية . وقد قال في هذا الصدد « اني ابن شاعر وقد بذلت جهدي العمر كله لكي لا أكون شاعراً » لكن الطبيعة لا تغلب والله درُّ من قال .

وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تفسيراً
تكلّف شيءٍ في طباعك ضدهُ

وكيف تغلب وقد ربي على ما ينميها ويقويها فقد كان بيت أبيه نادياً لرجال الأدب من الشعراء والمغنين حتى أنه علق صناعة الغناء وصار غرضه الأكبر ان يصير من كبار الموسيقيين وبقي

على حبه لها العمر كله درس في ليبسك وبرلين وباريس وامتاز
وهو في كلية برلين بالاجتهاد وسرعة التحصيل وذهب مذهب
كنت الفيلسوف الألماني ولم يعل عنه . ثم مال إلى درس اللغات
الشرقية فنال منها النصيب الاوفر وبرع في السنسكريتية
والفارسية وترجم الهيتوبادسا (كتاب قصص الهندود) من
السنسكريتية ونشرها وهو في العشرين من عمره . ثم انتقل إلى
باريس ودرس على العلامة المستشرق الأستاذ ايجن برنوف ولم
يكن على سعة من العيش لكن كان من حسن بخته أن صادقه
البارون بنصن العالم الكبير فهد إليه يد المساعدة وكتب عنه إلى
الارتشديكن كارل الانكليزي يقول :

« لقد أوصاني بعض ذوي المقامات العليا بشاب عمره اثنتان
وعشرون سنة له مقام كبير في عيني شلنغ (فيلسوف ألماني)
أشهر نفسه بترجمته الهيتوبادسا من السنسكريت وهو واسع
الاطلاع بارع في كل شيء ويود أن يقيم في انكلترا بضع سنوات . .
وهو ابن الشاعر اللغوي المشهور وليم مولر والذي أعلمه من أمره
أنه رائع الآداب رزين العقل » .

ويقال ان أعظم اكتشاف اكتشفه البارون بنصن لفائدة
اللغات الشرقية هو اكتشافه مكس مولر . وقد ساعده البارون
بنصن والأستاذ ولسن على الشروع في العمل الذي بقي عاكفاً
عليه إلى أن ادركته الوفاة فوكلت إليه شركة الهند الشرقية

ترجمة الرغ فيدا كتاب ترانيم البراهمة وهو أساس الآداب
 السنسكريتية . وقال له بنصن حينئذٍ « لقد وكلت بعمل
 يكفيك العمر كله قطعة كبيرة لا تنحت ولا تصقل الا في
 سنوات كثيرة لكن لا بد لك من أن تعطينا نتفأ منها من وقت
 إلى آخر » فجعلت هذه النتف تنهال من قلمه كالطر . وبقي
 عشرين سنة في تحرير الرغ فيدا لكنه لم يقتصر عليه بل اشتغل
 بمواضيع كثيرة وبرع فيها كلها فدرس اللغة الانكليزية وصار من
 البلغاء فيها كلاماً وانشاءً وله الخطب الرفانة التي كان الناس
 يتقاطرون لاستماعها ولو كانت في اعوص المواضيع اللغوية
 والفلسفية لبلاغة عبارتها وسهولة مأخذها . والكتب الكثيرة
 التي أعيد طبعا مراراً لرغبة الناس فيها . ومن هذه الكتب لغات
 دار الحرب (أي بلاد الهند) طبعه سنة ١٨٥٤ . وعقائد الأمم
 طبعه سنة ١٨٥٦ وتاريخ الآداب السنسكريتية طبعه سنة ١٨٥٩
 وخطب في علم اللغات طبعها بين سنة ١٨٦١ و ١٨٦٣ وخطب
 في علم الدين طبعها سنة ١٨٧٠ وكتاب النتف في أربعة مجلدات
 طبعت بين سنة ١٨٦٨ و ١٨٧٥ وخطب في أصل الدين ونحوه
 طبعت سنة ١٨٧٨ ومقالات مختارة طبعت سنة ١٨٨١ .
 ومقالات في ترجمات المشاهير من اصدقائه ومن معلمي بلاد الهند
 طبعت سنة ١٨٨٣ وكتاب في الدين الطبيعي طبع سنة ١٨٨٩ .
 وحرر الرغ فيدا في ستة مجلدات كبيرة فيها ثمانية آلاف صفحة
 متناً وشرحاً وقد فحصه سبع مئة من البراهمة فحكوا أنه

أفضل نسخة وأصلحوا نسخهم عليه . وحرر كتب المشرق
الدينية وهي خمسون مجلداً . وله غير ذلك من الكتب والمقالات
ومن آخر مقالاته مقالة في أديان أهالي الصين نشرت في جزء شهر
(نوفمبر سنة ١٩٠٠) من مجلة القرن التاسع عشر .

وحالما ظهرت مقدرته في علم اللغات اختير استاذاً فيه ، في
مدرسة اكسفورد الجامعة فأقام فيها نحو خمسين سنة . ولبعض
العلماء مثل هكسلي وتندل وفوستر مقدره فائقة على بسط
المواضيع العلمية وهم يخطبون فيها حتى ترى الناس يتقاطرون الى
نوادي الخطابة عن طيب نفس ولو كانت الموضوع من المسائل
الطبيعية العويصة . فجرى مكس مولر مجرام وبلغ الطبقة العليا
بينهم فكان يخطب في علم اللغات وقد لا يقول شيئاً جديداً أو
شيئاً لم يذكره أحد قبله ولكنه كان يفصح عنه على أسلوب
يختلب الألباب لم يسبقه أحد إليه حتى ذاع اسمه في البلاد
الانكليزية كلها وصارت خطبه من المواضيع التي يتحدث الناس
بها في مجتمعاتهم وولاتهم وذهب كثير من أقواله أمثالا .

ولم تكن آراؤه كلها مما يقوى على النقد والتمحيص ولا لقي
الطاعة العمياء من معاصريه والتسليم التام لمقدماته ونتائجه بل
لقي من علماء عصره كل منتقد عنيد كما ترى في ما ذكرناه في الجلد
السادس عن رأيه في أصل اللغات وانتقاد الأستاذ هوتني عليه .
وكذا مذهبه في اشتقاق الشعوب الأوربية من الشعوب الآرية

وتولد الأوروبيين والهنود من أصل واحد ومهاجرة الأوروبيين إلى أوروبا من قلب آسيا فإن كثيرين من نخبة العلماء يخالفونه الآن في هذا المذهب . ويقال بنوع عام أنه كان متطرفاً في مذاهبه متسرعاً في أحكامه لكن لا ينكر أحد أن علم اللغات (الفيلولوجيا) الذي وضعه الأستاذ بوب سنة ١٨٣٥ لم يوسعه أحد مثل تلميذه مكس مولر . وكتابه في عقائد الأمم لا يخلو من آراء غير سديدة ولكنه هدى العلماء إلى مكتشفات عديدة في هذا الموضوع وأوضح كثيراً من الغوامض بذكاء وعقل وقوة بدهته .

ولا شبهة عندنا في أنه وسع نطاق علم اللغات ورجب الناس في درسه وعلّم الأوروبيين والمشاركة أنفسهم كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم ولكننا نرتاب كثيراً في أن ذلك أفاد سكان المشرق سياسياً فقد بذل جهده مدة خمسين سنة ليقنع الانكليز أن الهنود أبناء أعمامهم لكن هذا لم يغير رأي الانكليز في الهنود ولا أفاد الهنود مثقال ذرة . ومن لا يقنعه قول انكتاب ان الناس كلهم من أب واحد وأم واحدة لا تقنعه آراء العلماء وأقوال الفلاسفة .

وكان رضي الأخلاق كثير الاصدقاء يقصده الزوار من أقطار المسكونة ويكاتبه الناس بلغات شتى . اختار انكليترا وطناً له لكن حب ألمانيا وطنه الأصلي لم يهجر فؤاده فلما نشبت

الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ نشر خمس مقالات في جريدة التيمس دافع فيها عن سياسة بسمارك وأقام الأدلة على أنه كان يقصد بها السلم لا الحرب . وبقي العمر كله عالماً ألمانياً بين العلماء الإنكليز . وقد بذل الإنكليز جهدهم في اكرام مشواه وخلقوا له منصب استاذية اللغات الأجنبية خلقة لكي لا يجرموا فوائده ولا يدعوه يهجر بلادهم . ثم أبدلوها باستاذية علم اللغات (الفيلولوجيا) . ولما كثرت أشغاله وودّ أن يعفى من هذا المنصب لأنه لم يعد قادراً على القيام به عينت المدرسة استاذاً آخر نائباً عنه يقوم بأعبائه وأبقت الاستاذية له . ولكن لما خلت كرسي استاذ السنسكريت وترشح لها هو والأستاذ الإنكليزي مونير وليمس فضّل المنتخبون الأستاذ مونير وليمس عليه لأنه أكفى منه لهذا المنصب بل لأنه إنكليزي ومكس مولر ألماني فاستاء من ذلك لكنه لم يحقد على الذين فضلوا غيره عليه . وود مراراً أن يترك أكسفورد وأما أكسفورد فلم تتركه وقد أكرمتها كما أكرمت أشهر تلامذتها وأعظم اساتذتها وكان الصلة المتينة بينها وبين علماء أوروبا ولا سيما علماء ألمانيا حتى أن امبراطور ألمانيا كان يبعث إليه بتلغراف التهنية كلما فازت أكسفورد في سباق أو نحوه .

توفي في الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٠ في بيته بأكسفورد على أثر مرض عقام في كبده واحتفل بدفنه في غرفة نوفمبر وحضر الاحتفال الجنرال غودفراي كلارك من قبل جلالة

الملكة والمهرشاز ستينورتز من قبل جلالة امبراطور ألمانيا وبعث
الامبراطور باكليل فاخر من الازهار البيضاء وضع على التعش
وقد كتب عليه « لصديقي العزيز » وبعث ملك اسوج اكيلا من
الزنايق . وحضر الاحتفال أيضاً ولي عهد سيام ونواب المدارس
الجامعة والجمعيات العلمية .

(المقتطف عدد تشرين ثاني « نوفمبر » سنة ١٩٠٠)

مقدمة المؤلف

الحرقة اللاذعة قلب من جلس إلى منضدةٍ طالما اتكأ عليها صديق نام الآن في القبر ليستريح، ترى من لا يشعر بتلك الحرقة بعد فراق الحبيب؟ من ذا الذي لم يحاول ولو مرةً فتح أبواب حفظت أسرار فؤاد يختفي اليوم وراء هدوء المدافن وجلالها؟ هذه رسائل أحبها كثيراً ذلك الذي أجمعنا القلوب على محبته . وهذه صور ، وأشرطة ، وكتب وضعت بين صفحاتها العلامات والرموز . من ذا الذي يستطيع الآن قلبها ليستشف الغاية منها؟ وهل من يد سحرية تلم شمل هذه الوردة الممزقة الجافة وتنثف فيها من جديد روح الحياة وأريجها؟

كان اليونان يضعون موتاهم على فراش ناري فيلتهمها اللهب . واعتاد الأقدمون ايداع النار كل عزيز لديهم ، وإنما النار مستودع أمين لهاتيك الذخائر .

كذلك يقرأ الصديق الأسيف صحائف لم تقع عليها عينٌ غير تلك التي أطبقت إلى الأبد . وإذ يتثبت من خلوها بما يعبا به

العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار ، فيضم اللهب وديعته
هنيهة ولا يطول حق ينقلب وإياها رماداً .

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن
يراد في البدء سوى اذاعتها بين خلان الصديق الراحل . أما
وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرة بالانتشار في العالم
الوسيع . وكان يودّ نشرها إظهارها على صورة أتمّ إلا أن
الأوراق بالية في الأصل لا يتيسر نشرها بحذافيرها .

ف . مكس مولر

الذكرى الأولى

للطفولة أسرار ومميزات ولكل من ذا الذي يستطيع وصفها ! من ذا الذي يستطيع تعليلها ؟ لقد اجتاز كل منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة ، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوءتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه . يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن : بل العالم كله يخصصنا ونحن ملك العالم بأسره . حياة تخال دائماً بلا بداية ولا نهاية لا هم فيها ولا ألم . القلوب عندها صافية كسماء الربيع ، عذبة كعرف البنفسج ، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد .

ماذا يطرأ على الطفل فيقلق فيه هذا السلام الإلهي ، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة ؟ أي العوامل يحول معاني كيانه ، ويميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن ؟ أي العوامل يعلمه تمييز المفرد من الجمع ، فينتبه فجأة ليجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كثيباً ؟

لا تقل ، يا ذا الوجه العبوس ، ان ذلك العامل هو الخطيئة .

أو هل يبني الطفل اثماً ويعترف ذنباً؟ بل حري بك أن
تعترف اننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى
الاستسلام والامتثال .

أهي الخطيئة التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرة ،
ثم تقنى الثمرة وتذررها هباءً !

أهي الخطيئة التي تحوّل الحشرة دودةً وتجنّح الدودة
فراشةً ، وتذر الفراشة هباءً ؟

أهي الخطيئة التي تسيّر الطفل رجلاً ، وتشعل منه الرأس
بشيب الشيخوخة ، ثم تهمد الشيخ جثةً ، ثم تذر الجثة هباءً ؟

وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور؟ ألا فاعترف
بأننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى الامتثال
والاستسلام !

ولكنه يجلو التلفت إلى ربيع الحياة وإلقاء نظرة على
هيكल التذكار ، سواء أكنّا من العمر في قيظ الصيف أو حزن
الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بد من ساعات فيها يتاجي
القلب ذاته قائلاً « وأنا أيضاً أشعر بالربيع متيقظاً في » !

هذا ما أشعر به اليوم . وتراني مستلقياً على نديّ العشب في
الغابة العطرية لأريح جسمي المضني . أرفع بنظري إلى زرقة

السماء البادية من خلال الوريقات الخضراء وأفكر « ترى كيف
كانت طفولتي » ؟

أخالني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه
التوراة القديمة المحفوظة في العائلة أي أن أوراق الاستهلال منها
ذابلة متجمعة ملوثة ، ولا تيسر القراءة إلا بعد صفحات
وصفحات ، عند السطور المحدثة عن طرد آدم وحواء من
الفرديوس .

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعني أيامها
القصوى ؛ أعود بأحلامي إليها ، وأنتقل منها إلى الأبدية التي
سبقتها ، وتظل البداية المبهمة متراجعة أمامي كلما تلبسها فكري
القاصر ، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحدائث . وأنا
في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض
فيعدو حثيثاً وتلبث السماء مجددة آفاقها . فيتعب الطفل
وتكل قدماءه ولا ينال من بغيته شيئاً .

على أنني مسازلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت
النجوم تعرفني منذ زمن طويل . كنت في ذلك المساء على ركبتني
والدتي ، ورغم ذلك سرى البرد في جسدي واستولى عليّ الخوف ،
فانتبهت لذاتي الصغيرة انتبهت لها غير عادي . ورفعت والدتي
اصبعها مشيرة إلى النجوم اللامعة . فدهشت وفكرت « بأي

لباقة صنعت أمي كل هذا! وعادت الحرارة الى جسدي وأظنني
استسلمت للنوم .

وأذكر كيف اضطجعتُ مرة على العشب الأخضر وكل ما
حولي يوجُ ويهتزُّ ويطنُّ ويهمهم . فاقتربتُ مني جماعة مخلوقات
صغيرة مجنحة ذات أقدام متعددة وحلت على جبهي قائلة :
« نهارك سعيد » . فشعرت بألم في أجناني وصرخت منسأدياً
أمي . فجاءت وقالت : « يا بني المسكين ، ها قد لسعتك
البعوض » ! ولم أتمكن من فتح عيني لأرى زرقة السماء . وكانت
أمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالأريج المسكن ذي
الزرقة القائمة يخترق دماغي . ومنذ ذلك اليوم ما رأيت باكورة
البنفسج إلا انتعشت تلك الذكرى في حافظتي فأغمض عيني
لعل سماء ذاك العمر تحييم علي مرة أخرى .

شفيتُ ، فانبسط أمامي عالم لم أعهدهُ يفوق منه الجمال جمال
الكواكب ويفضلُ منه العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد
الفصح . فأيقظتني والدتي باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة
القديمة القائمة إزاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي ، إنما
كانت شاهقة ، جدرانها ذات منظر مهيب ، باذخة قبتها يعلوها
صليب مذهّب ، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة .

ولطالما تمنيتُ تعرف من يسكنها فنظرتُ من شبك الباب
الحديدي ، وأطلتُ النظر مرة وكان الداخل خاوياً خالياً رطباً

وليس ثمت نفس واحدة . فصرتُ أفزعُ كلما مررتُ بها فأعدو طلباً للهرب .

ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء في الضحى رذاذاً ثم بزغت الشمس في أبيي حسلة من الأنوار فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألق سطحها المصقح الأشهب ، ولعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت القبة بسناء صليبيها الذهبي سطوعاً مدهشاً تناول كل شيء منها وحواليها . وبدأ النور السائل من النوافذ الكبيرة حياً متموجاً وأبهي من أن يمكن التحديق فيه . فأغمضت عيني . إلا ان النور العجيب ما زال يفيض على روحي جاعلاً جميع الأشياء لامعة عطرة ترنُّ وتنشد .

خلتُ حياة جديدة تفيض في كَأَن شخصي الأول تبسدل بشخص آخر ؛ وإذ سألت عن الأصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسن لي الى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي هبطت أنغامه على روحي ، ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تسربت الى روح لوثر الصارمة . ولم أعد أسمعه مرة أخرى . أما الآن فعندما أصغي الى موسيقى بيتهوفن أو مزامير مارسلو ، أو أجواق هينسدل وأحياناً عندما أسمع الأغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا والتيرول ، أشعر بأن نوافذ كنيسةي القديمة تسطع بنور باهر ،

وان عالماً جديداً ينفتح أمامي أجمل من عالَم الكواكب
وأعذب من عرف البنفسج .

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخللها وجه أمي
الحنونة وعينا أبي العميقتان ، وسدائق وأشجار وأعشاب مخملية
الخصرة ، ودالية تحمل العناقيد الناضجة ، وكتاب جليل حافل
بالصور الملونة ، التوراة . هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى
من ذاكرتي الذابلة .

لكن ما يعقبه واضح جلي* . أرى ملامح الوجوه التي اعتدت
مشاهدتها وأنادي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم : أبي وأمي ،
وأخواتي وإخوتي ، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض
الغرباء ...

أواه ! يا حللوة تذكارتك في الغرباء في فؤادي ! ويا لعنق
موضع روحي نُقِشت فيه أسماؤهم !

الذكري الثانية

كان على مقربةٍ من بيتنا وإزاء الكنيسة ذات الصليب المذهبّ بناية شاهقة تعلوها قبب كثيرة . عظمت حتى صغرت حيا لها بناية الكنيسة ذاتها . وكانت قببها شبيهة قديمة كقبب الكنيسة إنما لم تظهر فوقها الصليبان المذهبّ بل قامت على الجوانح سورٌ حجري وخفقت رايةٌ زرقاء على القبة العليا المطلّة على المدخل ، وقد امتد أمامه سلم يمنةٌ وآخر يسرة ووقف جندي يحرس كلاّ منها .

نوافذ المنزل عديدة تجلّلتها من الداخل الحرائر القرمزية تتدلى منها الطرر الذهبية . وأشجار الليمون المنتصبة في الساحة الفيحاء تغطي الجدران بوريقاتها الفضة وتنشر على العشب أريج أزهارها .

كثيراً ما كنتُ أرفع عينيّ إلى هناك عند المساء إذ تطلتق أشجار الليمون أعذب أنفاسها وترسل النوافذ أبهى أنوارها فأرى خيالات تجيء وتروح ، وأسمع أنغام الموسيقى مترددة من

أعالي القصر . ثم تترقُّ المركبات الى القصر فيترجل الرجال والنساء ويصعدون على الدرجات وعلى وجوههم سماء الصلاح والنبيل ، بينما نجوم الأوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين ترقص بين شعور النساء . فأفكر في بساطتي « لماذا لا أذهب أنا كذلك » ؟

أخذني والدي بيدي يوماً وقال « ها نحن ذاهبان الى القصر . فتأدب . وإذا كلمتك الأميرة أجب باحتشام وقبّل يدها » . وكنتُ في عامي السادس ففرحتُ فرح أهل هذا العمر . وكنتُ أسمع الثناء الكثير على أخلاق الأمير والأميرة صاحبي القصر وما فطرا عليه من ميل الى الاحسان وعطف على الفقراء ، فضلاً عن عدل وانصاف بهما يمثلان الله تعالى على الأرض في معاقبة الأشرار والمعتدين . فحسبتهني أعرفها ، وحسبتهما نظير الصورة التي وضعتها لها مخيلتي . بل هما كانا من معارف القدماء لا كلفة بيننا ولا تكلف كأنها بعض الأعيبي وجنودي الخشبية .

صعدتُ في السلم وقلبي يدق بسرعة . وأخذ أبي يوصيني أن أقول « سموك » في مخاطبة الأميرة . ففتحت الأبواب ورأيت أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقتين نافذتين ، تحال آتية تواء إلى تمد يدها لأضع فيها يدي . وللملحها هيئة ألفها ذهني ونصف ابتسامة محجوبة تلعب حول ثغرها بلطف . فلم أتمكن من ضبط نفسي . وفي حين ظل أبي واقفاً قرب الباب

ينحني (لا أدري لماذا؟) انحناء عميقاً خففت أنا الى السيدة الجميلة
وقلبي يقمز الى شفتي ، ثم طوقت عنقها بذراعي وقبلتها كما أقبل
والدتي . فظهر الارتياح على وجهها وداعبت شهري ضاحكة .
إلا ان أبي مسك بيدي ودفعتني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني
لن أرافقه مرةً أخرى . فأخذتني الحيرة وصعد الدم الى وجنتي
وشمرت بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني . نظرت
الى الأميرة استمد دفاعاً فلم أرَ في محبتاها غير الرصانة واللفظ .
وأدرت ببصري في القاعة ومن فيها من رجال ونساء لعلني أجد
من يشاركني في ألمي فإذا بهم جميعاً يضحكون . فهطلت الدموع
من عيني وسرت نحو الباب وهبطت السلم مسرعاً تحت أشجار
الليمون حتى وصلت المنزل والتقيت بأمي ، فرميت بنفسي بين
ذراعيها والشهيق يقطع صدري .

فقال : « ماذا جرى لك يا بني » ؟

قلت : « آه لو تعلمين ! ذهبت الى الأميرة فوجدتها جميلة لطيفة
مثلك يا أماء فلم أتمالك أن طوقت عنقها بذراعي وقبلت
وجنتيها » .

فقال : « وكيف فعلت ! هؤلاء الناس أشرف أمائل وهم
غرباء عنا » .

قلت: « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي أن أحب كل من
نظر إليّ بعينين معسولتين باسنتين ؟ »

قالت: « لك أن تحبّ من تشاء يا بني . ولكن عليك أن
تكرم حبك ولا تظهر منه شيئاً » .

قلت: « ان لم يكن حبّ الغرباء جريمة فلماذا يحظر عليّ
إظهاره » .

فتنهت أمي وقالت « انك لمصيب يا بني » . لكن عليك
أن تطيع والدك . وعندما تكبر سنأ وفهماً تعلم لماذا لا يجوز أن
تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين جذابتين » .

وكان ذلك اليوم كثيراً . عاد أبي الى البيت وكرر إليّ أسأت
التصرف . وفي المساء سارت بي أمسي الى سريري فجشوت
وصليت . غير اني لم أنم إلا بعد أرقٍ طويل متسائلاً من هم الغرباء
الذين لا تجوز محبتهم .

والوعتاه عليك يا قلب الانسان ! ان أوراقك لتجف في
ربيع أيامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان . عندما
يبرز فجر الحياة في أفق النفس ينتشر فيه عبير الحبّ . نحن
نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحبّ ،
لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تتسديه بأصواتها

المختلفة . وقوة الحب أهم أصل غرسته الطبيعة في أعماق الكيان .
فكما تجذب الأجرام السماوية بعضها بعضاً بالجاذبية الأبدية كذلك
تجذب الأرواح المتألفة بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالأخرى
برباط الحب الأبدي . هيهات للزهرة أن تعيش بلا شمس
وللإنسان أن يحيا حياة عظيمة بلا حب .

أليس ان قلب الطفل يكاد ينسحق السحاقاً إذ تهب عليه
من الجفاء النسائم الباردة الأولى في هذا العالم الزئبقي ؟
ولكن ها ان حب والديه يظل لامعاً في أحاطتهم كأنوار سماوية
وأشعة إلهية .

حين الطفل أظهر أنواع الحب وأبعدها غوراً وأشملها
طبيعة لأنه يحتضن العالم بأسره منسكباً على كل نظرة ودودة ،
ويهتز لسماح كل نعمة عذبة . هو بجر عميق زائر لا قرار له ،
وهو ربيع كنوز لا تقدر وخيرات لا تحصى . وكل من اختبر
الحب عرف أنه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا
نقصان ، وإن الذي يجب صادقاً يجب بكليته قلبه وروحه
وبجمع قواه وأفكاره .

لكن واحسرتاه ! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد
الوصول إلى نصف رحلة الحياة ! عندما يعلم الطفل أن في العالم

« غرباء » ويفهم من هم أولئك الغرباء تنتهي أيام طفولته .
فيختفي ينبوع الحب وتسحقه أقدام الأعوام والاختيار .
ويوم يتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محله خيالات التعب
والريب ينظر الإنسان إلى أخيه نظرة الغريب إلى الغريب
ويتحاشى الدنو منه في الشارع المزدحم . يمر غير مسلم خوفاً أن
لا ترد التحية فتتوجع روحه ، لأن الإنسان ذاق مرارة الهجر
من أصدقاء طالما بادلهم تحية الرؤوس وابتسام الشفاه ولمس
الأيدي . الريش البهي يتساقط عن جناحي النفس ، وتجف
وربقات الزهرة منها وتتمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى
قطرات قلائل لإرواء غليل التائه في صحراء الحياة . تلك
القطرات نظل ندعوها حباً . فأين هي من حبّ الطفل
الفياض الجواد ؟

ليس ذاك سوى حبّ مزج بالشك والغموم ونار الانفعال
المضطرم . حبّ يفني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال
الحارة . حبّ يطلب دواماً ولا يبذل يوماً . حبّ يسأل « أتريد
أن تكون لي » ؟ ولا يقول « يجب أن أكون لك » . حب
يستغرق نفسه ، ويذيب نفسه ، ويلاشي نفسه ، وهو معذب
يأس . هذا هو الحب الذي تترنم بوصفه الشعراء ويتوق إليه
الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفي ولا تدفىء ، وتذهب

تاركة بعدها الدخان والرماد . نحن نزعم يوماً أن هذه الأسهم
النارية انما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما استعرت تلك النار
وعظم لهيبها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي
يتبعها .

وساعة يسود الأفق ويدلهم حول الواحد منا فيرى نفسه
وحيداً شريداً بين السائرين يئس ويسرة دون أن يعبروه التفاتاً ،
إذن تنهض عاطفة منسية وتتمشى في صدره ذهاباً وإياباً ، ولا
يدري أهى عاطفة حب أو عاطفة صداقة ، ويود أن يصرخ
لكل من أولئك الغرباء « ألا تعرفني » ؟

إذ ذاك يشعر بأن الغريب أدنى إلى الغريب من الأخ إلى
أخيه ومن الأب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه ، ويدوي في
طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلاً ان هؤلاء « الغرباء » أقرب
أصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا .

إذا لماذا نمر بهم صامتين ؟ ذلك سر لا يدرك وما علينا
سوى الامتثال . عندما يمر قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر
وجه يود أن يبتسم لك ، حاول مد يدك لمصافحة الصديق
المبتعد عنك قهراً . حاول ذلك وجربه لعلك تعلم لماذا يمر
الإنسان بالإنسان صامتاً .

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة
عائمة على صفحة البحر . يتلامس بعضها ويتلاقى الى حين . ثم
تهب الريح فتفرقها شرقاً وغرباً دون أمل في اللقاء . وذلك
مصير بني الإنسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهد
غرق السفينة .

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جو حياة الطفل بل تتبدد بتدفقها من عينيه دموعاً . لذلك عدتُ بعد أيام الى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتيج لي تقبيلها . وجاءتني بأولادها الأمراء والأميرات فأنشأنا نتقاسم الألعاب وتتشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنوات خلت . تلك أيام هنيئة لأنني بعد ساعات المدرسة ، وكنت بدأت أذهب الى المدرسة ، كان لي أن أتوجه الى القصر فأجتمع برفاقي وبين أيدينا ما يشتهي قلب الطفل من لعبات ودمى كثر ما أرتنيها والذقي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة ، قائلة انها باهظة الثمن قد تكفي الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعاً كاملاً . ومثلها كتب الصور الجميلة التي أبصرت أبي يقلبها عند أصحاب المكاتب ويقول انها لا تشتري لغير الاولاد الصالحين . ها هي لي الآن في القصر أقرأها وأتمعن في صفحاتها ساعات طويلة ، لأن كل ما يخص الأمراء الصغار يخصني ، أو بالأحرى هذا ما أزعجه . إذ لا تقصر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصياني عند أصحابه

بل أنا نخبتر في أخذ ما أريد منه الى البيت وفي التصرف به
ولإهدائه الى أولاد آخرين . وزبدة القول أني كنت اشتراكياً
بأوسع معاني الكلمة .

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفتت حول زندها
التفاف الحياة والإحساس . قدفعت بها اليها لنهبها . وعند الانصراف
لنويتُ الأفعى حول ساعدي لأرعب أمني في الظلام . فلقيت في
طريقي امرأة توسلت اليّ أن أريها الأفعى ففعلتُ . فتشهدت
وقالت انها لو ملكتها لخلص بئسها زوجها من غيابات السجن .
فلم أتردد لحظة في مساعدتها ، ومضيت أعدو تاركاً المرأة
والسوار الذهبي بين يديها .

وحدث في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة الى القصر
ثبكي وتنتحب وقد اتهمت بأن اغتصبني الأفعى . فاستشطتُ
غضباً وصرّحتُ بتحمس وحدّة اني وهبتها السوار ولا أروم
استرداده . لا أدري ماذا جرى بعدئذ . على اني صرت منذ
ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أحمله معي إلى البيت .

مرّ زمن قبل أن تتسع أفكاري فأدرك معنى خاصتي
وخاصتك . وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزني دون
التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق . وآخر مرة ضحكك مني
أصحابي لمثل ذلك ، كانت يوم أعطتني والدتي نقوداً لأبتاع تفاحاً .
أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت

البائعة بصوت خلته حزينا انها لم تبع شيئا منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترده إلي ، وتمنت أن أشتري تفاحاً بعشرين بارة . فتذكرت أن في جيبي قطعة نقود أخرى من ذوات العشر بارات ، وسررت أن أحلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلاً « الآن تستطيعين أن تردي العشر بارات الباقية » . فلم تفهمي المرأة المسكينة بل أعادت إليّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات .

كنت أذهب كل يوم أشارك الأمراء في ألعابهم وأتعلّم معهم الفرنسية . ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي ، هي صورة ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي توفيت والدتها أثر وضعها ، فتزوج الأمير بعدئذ بالأميرة الحالية . تتصاعد تلك الصورة في شفق ذاكرتي بتمهل وإبهام . فهي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلاً قليلاً مقترباً مني ، حتى يقف أخيراً أمام نفسي ساطعاً كالنجم يشق حجاب الغيوم بعد زوينة شديدة ويبرز فينير وجه الليل . كانت الفتاة أبداً مريضة تتألم صامتة . ولم أرها حياتي إلا ملقاة على سرير نقال يحمله إلى غرفتنا رجلان ، ويحملانه منها إذا هي تعبت وأشارت . هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء شابكة يديها على صدرها ، ووجهها شاحب وإنما مليح لطيف وعيناها عميقتان لا قرار لغورها . فأقف حياها مشتت الفكر ، وأحسّ في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من « الغرباء » . فتضع

يدها على رأسي فتعتريني هزةٌ وألبث جامداً صامتاً بلا حركة
ولا كلام ، وكل قواي تطل من حدقتي على تينك المينين العميقتين
اللتين لا قرار لهما .

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة ألعابنا . ولم
تكن تتذمر منها أفرطنا في رفع الصوت وإكثار الجلبة بل تنقل
يديها الى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم للنوم .
وتشعر بتحسن صحتها في أيام أخرى فتستوي فوق مضجعها
ونرى على وجنتيها نضرة الفجر الباكر . فتحدثنا الأحاديث
المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست أدري كم كانت
سها ، على انها كانت باعترافها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال
يداريها الجميع ، ويذكرونها برفق واحترام وينعتونها « بالملك »
ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة . أما أنا فكنت أقف
حياها خاشعاً ، وعندما أراها صامته بائسة وأفكر في انها لن
تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع
الإرادة ، وانها ليس لديها من عمل تؤديه ولا من مسرة تتمتع بها
بل ان سريرها هذا في الحياة إنما هو رمز نعش يضمها في الممات ،
إذ ذاك أساءل نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن
تذوق راحة رضية في حضن الله ، أو ان تُحمل على أجنحة
الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلاً في الصور المقدسة . ثم أشعر
بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلة ان قربها قلباً
يتألم لها ويحتمل معها . ولكن كيف أبوح لها بما يحول في خاطري

وأنا غافل عن وجوده ؟ كل ما كنت أعلم انه لا يجوز لي أن ألقى بتفسي على عنقها لئلا أسبب لها كدرًا وغمًا . فأكتفي بالابتهاال الى الله من أعماق قلبي أن يريحها من سقامها .

أدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كل الشحوب ، أما عنها فكأنتنا أشد لمعانًا وأبعد غورًا . فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت « اليوم تذكرك مولدي . حبذا العيشة معكم طويلًا ولكن قد يدعوني الله إليسه في القريب العاجل . ولما كنت راغبة في أن لا تنسوني تمامًا بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله الى الأصبع المحاذي كلما مرت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة » .

وعمدت الى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتهما الواحد بعد الآخر وعلى وجهها إمارات حزن عميق يلازمه حبٌ ولسين . فأغمضت عيني كيلاً أبكي . فأعطت أخيها الأكبر الخاتم الأول وقبّلتها ، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث الى أختيها الأميرتين ، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصغر ، وقبّلتهم جميعاً . وكنت أقفُ قربها محذّقة في يدها البيضاء وفي الخاتم الوحيد الباقي في أصبعها . ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقي بنظرها ففهمت بلانريب ما يدور في خلدي . وسمعت ما يهمس به قلبي لأن الحلاط الأطفال شديدة التعبير بليغة للمعنى . حزننت لأعراضها ، ولو حاولت مراضاتي

لأن ما رضيت أن أنال الخاتم الأخير لأن التخلّف إنما يدلّ على
إني غريب لا تخصني بإعزاز ولا تحبني محبتها لآخوتها وأخواتها .
وصرت متوجعاً كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه ،
ولم أعد أدري انّي أوجه نظري لأخفي كربتي .

فجلستُ من جديد ولمستُ جبتي مرسلّة في عيوني نظرة
استقصاء واستقراء أشعرتني بأن ما من سرّ فيّ إلا اكتنفته الفتاة
وما من فكر إلا قرأته . وسحبتُ الخاتم الأخير من يدها متمهلة
وقالت : « وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن
ألبسه أنت فذلك خير . وفكر فيّ عندما أصير بعيدة عنكم .
اقرأ الكلمات المنقوشة عليه « كما يشاء الله » . أما قلبك هذا
فمفعم حرارة ورقة ، ألا فلتروّضه الحياة وتتمه دون أن
تقسيه » ثم قبلتني كما قبلت آخوتها وأعطتني الخاتم .

ما أصعب الوصف وما أعصاه ! يومذاك كنت أكاد أكون
صبيّاً ، فكيف يتفلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتأم ولطفه ؟
كنت أحبها كما يحب الصبي ، والصبيان يحبون بجرارةٍ وصدق
وطهارة قلّ منهم من يحبّها في الشبيبة والرجولة ، على اني
ذكرتُ انها من « الغرباء » الذين حرّمت عليّ المجاهرة بحبهم .
إنما شعرتُ بتقارب روحينا وبتلامسها بأرق ما تتلامس به
أرواح البشر . زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأني وحيد
في العالم ، ولم أعد أشعر بأني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو

مرتبة . كنتُ معها ، كنتُ قريبها ، وكانت روعي تلمس روعيها ، فحسي .

ثم رأيتُ ان استبقاء الخاتم الذي ودّدت أخذه الى القبر ، رأيت ان استبقاءه معي حرماناً لها ، وتعاليت في نفسي عاطفة طفت على كل عاطفة سواها فقلتُ مضطرباً « احتفظي بالخاتم ان شئت أن يكون نصيبي . لأن ما لك هو لي » فأطالت النظر في وجهي دهشة متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعتة في أصبعها وقبّلتُ جبّتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق « أنت لا تدري ماذا تقول ، أيها الفتى ، فحاول أن تفهم نفسك لتسعد وتُسعد الآخرين » .

الذكرى الرابعة

نجتاز من العمر أعواماً يماثل تتابعها مرةً طويلاً قامت على
جانبيه أشجار الحور تحجب عنا استدارة الأفق فنظن جاهلين
أي الأحاء نجوب ، ولا نحفظ منها سوى كئيب الذكر إننا
قطعنا من الأيام مراحل وتقدمنا في السن . ونلهو في حداثتنا
بمراقبة المد المنبسط من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحداً وان
تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين . فإذا ما بلغنا شلالات
الحياة ، شلالات الجهاد والعناء والألم ، كان عملها في نفوسنا
شديد الأثر ، وكما ابتعدنا عنها زاد تعالي صخبها وهديرها
وضجيجها . حتى إذا أخذنا في الدلو من أوقيانس الأبدية اجتلى
في ذهننا معناها ، ووضحت لنا أهميتها ، ف شعرنا بأن القوة التي
ما فتئت تمدنا بالنشاط والفتنة والحكمة وما زالت تسوقنا الى
الأمم نحو غاية سامية إنما تلك الشلالات أصلها ومصدرها ،
ومنها منهلها الذي لا ينضب .

انقضت مدة دراستي ومضت معها أوقات السرور والخلو
وذوى من أحلامي الجميلة كثير ، على انه بقي لي إيماني بالله

وحسن ثقتي بالبشر . رأيت الحياة شديدة الاختلاف عما صورته
مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة مهمة تزينها المعاني
الرفيعة السامية . وما أشكل منها وجلب غمًا وألمًا صار في
تقديري أقوى شاهد على ان يد الله تدير حركات الكون فليس
لعقولنا المحدودة أن تحصر تلك الحكمة المتناهية . « لا يقع شيء
إلا بإذن الله وسماحه » غدا هتأ المبدأ الفلسفي موضع راحتي
وتعزيتي .

عدت في عطلة الصيف الى بلدي . فرح العودة وفرح اللقاء ،
من ذا منا يشرح أسبابه ؟ من ذا الذي يتفهم لذة نتبوقها في
أن نرى مرة أخرى ما رأيناه من قبل ، وأن نجد من جديد ما
سبق وعرفناه قديمًا ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع وكل
مسرة . قد يكون ما نراه ونسمعه ونذوقه لأول مرة جميلًا
مرضيًا لذيذًا على انه يدهشنا يجدته وغرايته فلا يتم الهناء به لأن
مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن إذا
سمع المرء بعد مرور أعوام نغمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبذة
من نبراتنا فعرفتها روحه وعانقتها كأنها صديق عزيز ؛ أو وقف
أمام صورة العذراء ناظرًا في عيني طفل تحمله فتنبهت فيه
عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره ؛ أو استنشقت زهرة ،
أو ذاق طعاماً لم يذكره منذ زمن الحداثة ، شعر بلذة لا يدري
لعمقها فهي آتية من السرور الحاضر وحده أم هي جمعت بين
أطايب الساعة المارة وتذكارات عهد مضى .

كذلك يعود الطالب منا الى وطنه بعد غياب أعوام
فتخوض نفسه ببحر خواطر تحمله منه الموجات المترنحة نحو
شواطئ الأيام القصية ، وإذا يسمع ساعة البرج تدق يضطرب
خوفاً من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رعبه جثلاً
بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر الشارع هو الكلب الذي
طالما لاعبه في الماضي ، وما هو الآن قد كبر ، شاخ حتى قام
الفراغ مقام أنيابه . وهناك بائع السلع المتجول الذي طالما جربتنا
تفاحاته وما زالت في حكنا ، رغم غبار يلتصق بها ويغلفها ،
أشهى صنوف التفاح في العالم . وهناك هدم منزل قديم وشيد
غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أهبج الوقوف
تحت نوافذه في ليالي الصيف والاصغاء الى ما يبتكره ارتجالاً
اللسلية بعد ساعات العمل الطويلة ، فتنتلق الألحان كأنها بخار
تجمّع في نفسه خلال النهار فأنشأ يمتقه ليلقي عنه حملاً ثقيلاً .
وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أخاله أوسع قليلاً - هنا
اجتمعت ليلة بابنة الجيران الجميلة . لم أكن فيما مضى لأجرأ على
محادثتها والنظر إليها . على إننا نحن الصبيان كنا نتناقض
أخبارها في المدرسة ونسميها « الفتاة الحسناء » . فإن رأيتها
آتية في الشارع عن بعد اغتبطت لهذه المصادفة دون أن أطلب
الدنو منها . وكانت انها مرة في هذا الزقاق المؤدي الى المقبرة
اتكأت على ذراعي وسألني أن أسير بها الى البيت . مشينا ولم
ننبس بكلمة طول الطريق . كنت صامتاً وظلت هي ساكنة ،
ولكن سروري كان من الشدة بحيث إني الآن بعد مرور أعوام ،

ان ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع
ليتسنى لي السير مرة أخرى صامتاً سعيداً تستند على ساعدي
« الفتاة الحسنة » .

وهكذا تتوارد خاطرة أثر خاطرة حتى تعيج موجات
التذكار فوق رؤوسنا ، ونرسل زفرة تلفتنا الى ان الهجس أقلق
انتظام التنفس منا . فيختفي عالم الأحلام بغتة كما تتلاشى الأشباح
عند صياح الديك في الضحى .

ولما مررتُ أمام القصر القديم المحاط بأشجار الليمون
ورأيت الحراس على خيلهم عند الدرجات العاليات توافدت
التذكارات متلازمةً في خاطري واكتأبتُ لدوران الأيام . لم
أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الأميرة ،
واعتزل الأمير خدمة الحكومة وسكن منزلاً منفرداً في إيطاليا ،
وصار نجله الأكبر الذي نشأت وإياه نائباً عنه . يقيم في هذا
القصر تحفٌ به بطانةٌ من شبان الأشراف والقواد يتمتع
بحديثهم وينأ بعشرتهم ، فكيف لا يحسب أصدقاء طفولته
غرباء عنه ؟ وبما رغبتني في الابتعاد إني ككل شاب ألماني عرف
احتياج الشعب الألماني من جهة وخطأ الحكومة الألمانية من جهة
أخرى ، كنت انضممت الى حزب الأحرار واعتنقت نظرياته
المغايرة لنظريات بلاط الملوك كل المغايرة .

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على ذلك الدرج . ورغم ذلك

ألفظ كل يوم اسماً قطنتُ صاحبتُهُ في هذا التصر ومثلتُ صورتها في ذهني لا تبعد عني . اعتدت فراقها الجسدي لأنها نمتُ خيالاً جميلاً وثقتُ من أن لا أصل له في الواقع . صارت ملكي الحارسي وذاتي الأخرى ، أحادثها ساعة أحادث نفسي ، وأستشيرها وأعمل بنصيحتها . لست أدري كيف تجسمت فيّ الى هذا الحد على قلة معرفتي بها . ولكن كما ان النظر يبدع من السحب أشكالاً كذلك حفظتُ ذكرى طفولتي رؤياها اللطيفة وكونت من خطوط الحقيقة الضعيفة الواهية صورةً كاملةً بارزةً . أصبح تعاقب أفكارى محاورة بيني وبينها ؛ وما هو حسن فيّ ، وكل ما أتوق إليه ، وأسعى في سبيله ، وأومن بهـ ، كل ذاتي المثلى كانت تخصها ، كانت مهداةً إليها كما انها آتية من روحها ، من روح ملكي الحارس الأمين .

أقمت في بيتي العتيق أياماً فجاءني في ذات صباح رسالة مكتوبة بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

« صديقي العزيز

« بلغني انك ستقيم هنا زمناً . نحن لم نلتق منذ أعوامٍ طويلة . فإن أرضاك ان نلتقي مرة أخرى فأني أسرُّ كل السرور بمشاهدة صديق قديم تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري

« لك بإخلاص

« ماري

فجاوبت فوراً بالإنجليزية اني سأزورها في الموعد المضروب .
ولم يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر يفتح على
الحديقة ويتيسر الوصول اليه دون المرور في ساحة القصر
الكبيرة . ولما أذفت الساعة الخامسة اجتزت الحديقة متغلباً على
انفعالي ، متهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً « ملكي الحارس » في
داخلي ان لا شأن لي مع هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي
واضطرابي ، ولماذا لا يوحى إليّ « ملكي الحارس » ما اتطمئن به
وأرتاح اليه؟ أخيراً تشجعت هامساً لنفسي بكلمات سخرية بالحياة ،
وطرقت باباً كان نصف مفتوح .

وجدت في الغرفة سيدة لا أعرفها خاطبتني بالإنجليزية وقالت
ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديّ
الوقت الكافي لألقي نظرة على ما يحيط بي .

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقش
برزت فيه وريقات اللبلاب وتصاعدت معرشة في السقف .
كذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض الغرفة من خشب
السنديان وقد تحاذى فيها الحفر والنقش . وتوزع هنا وهناك
كثير من أمتعة ألفتها في غرفة ألعابنا القديمة وقد أضيف اليها
أمتعة جديدة ، لا سيما الصور والرسوم . وكانت هي الصور
بعينها التي اخترتها لتزين غرفتي في الجامعة : ففوق البيانو صور
بتهوفن وهيندل ومندلسمن ؛ وفي إحدى الزوايا زهرة ميلو وهو
في تقديري أتم وأبدع تمثال أبقته لنا المدينة القديمة . وعلى

الطاولات كتب دانتى وشكسبير ، ومجموعة مواعظ تولر ،
وكتاب « اللاهوت الألماني » وأشعار روكرت وفرنس وبورنز ،
وكتاب كارلايل « الماضي والحاضر » ، وهي الكتب نفسها التي
كنت أقلبها قبل أن أجيء إلى هذا المكان . فاجتذبت إلى
دائرة التأمل ، بيد أني حاولت التملص منها ووقفت أمام صورة
الأميرة المتوفاة . عندئذٍ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان
عهدتهما في حدائتي يحملان الكونتس على سريرها .

يا لعذوبة تلك الرؤيا ! كانت صامته لا تتحرك وبقي وجهها
هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . إذ ذاك
حوّلت نحوي عينيها ، تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك
غورهما ، وتألقت وجهها فأنقلبت كل هيلتها ابتساماً . ثم قالت :
« كنا صديقين ولا أظننا تغيرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني
أن أقول « أنتم » . وحيث أن العادة لا تسمح بأن أقول « أنت »
بالألمانية فلنتخاطب بالإنجليزية^١ . أليس كذلك ؟

لم أتأهب لمقابلة كهذه . رأيت أن لا تمثيل هنا ، ولا بجمالة ،
ولا رياء . هنا روح تتوق إلى روح أخرى . هذا ترحيب صديق

(١) الألمان كالفرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد « أنت »
إلا بين أفراد العائلة وبين الأصدقاء الأختاء . أما الإنجليز فيخاطبون الجميع
حتى الأقربين بالجمع . ولا يستعمل عندم المخاطب المفرد « أنت » إلا في
الصلاة والشعر وما نحوه من مناهج البلاغة (المعربة)

عرف عيني صديقه وراء الوجه العارية ورغم التنكسر الاتفاقي .
فأخذت يدها التي مدتها إليّ وقلت : من حدث الملائكة
لا يقول « أنتم » .

ولكن ما أعظمها قوة سبكت في قوالب الحياة
واصطلاحاتها ! ولم يتعذر التكلم بلغة القلب حتى مع أشبه
الأرواح بأرواحنا ! تعذر ذلك علينا فاضطرب حديثنا
وتضعفت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولت التخلص
منه بما حضرني من الكلام فقلت :

« لقد اعتاد الناس عيشة الأقفاس منذ الحداثة فإذا
ما وجدوا نفوسهم فجأة في الهواء الطلق لا يجرأون على تحريك
أجنحتهم ، ويتخوفون الاصطدام بالصخور إذا هم حلقوا في
الفضاء الواسع » !

فقلت « هو ذلك ، وهو عين الصواب وليس نقيضه بالممكن .
لا ريب أننا نودُّ أحياناً أن نكون كالأطيوار أحراراً نتنقل على
أشجار الغابات ونلتقي فوق الأغصان ونغرّد سوياً ثم نفرق
دون أن يعرف أحدنا الآخر . ولكن اذكر يا صديقي أن بين
الأطيوار غرباناً يؤثر تجنسها . ولعلّ الحياة كالشعر: فكما يحسن
الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في أوزان معينة ،

كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والوجدانية رغم قيود المجتمع ودون الايذاء بها أو التطلول عليها .

فأجبتُ مستشهداً بقول الشاعر بلاتن « أي شيء أثبت نفسه تحالداً في كل مكان؟ ذلك هو الفكر الحرّ رغم قيود الألفاظ »^١ .

فابتسمتُ ابتسامة رقيقة وقالت : « نعم . ولكن لي من ألمي ووحدي ما يخول لي ما يُنكر على سواي . وكم أشفق على الفتيات والشبان الذين لا يربطون فيما بينهم برابطة الصداقة والاتلاف إلاّ ويفكرون همّ أو يفكّر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حباً . الفتيات يجهلن الجسك المختفي في نفوسهن وقد يكفي لإظهاره حديث جدّي مع صديق نبيل . والشبان يتمشقون فضائل الفروسية ويمرنون نفوسهم على المحامد والمكارم إذا هم شعروا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم ونتائجها سرّية كانت أم علنية . ولكن للأسف ذلك لا يكون . لأن الحب لا يلبث أن يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حباً :

“Denn was an allen Orten (١)
Als ewig sich erweist ?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist. ”
Platen

أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس
والرجاء ، والتلذذ بالوجه المحبوب والتصورات المرضية ، وقد
يرافق هذه غايات وأطباع جملة . تهجم كلها متعاونة على إتلاق
ذلك البحر الهادئ العميق ، بحر الصداقة ، وهو صورة صادقة
للحب الإنساني الطاهر .

صمتت هنيهة فيها لاحت على وجهها أمارات الألم ، ثم
قالت : « حسي اليوم كلاماً فطبيبي لا يسمح لي بالإطالة . والآن
أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسهين ، النغمة
المزدوجة ، وكان صديقي الصغير يعزفها جميلاً فيما مضى . أليس
كذلك ؟ »

لم أخرج جواباً لأنها عندما صمتت وطوت ذراعيها على صدرها
كالعادة رأيتُ في خنصرها ذلك الخاتم الذي أعطتنيه يوماً ثم
رددته إليها . وكان تلاطم أفكاري يحول دون البيان . فجلستُ
إلى البيانو وعزفتُ ما شئت . ولما فرغتُ التفتُ إليها وقلت :
« حبذا لو أنيل الإنسان قدرة الإفصاح بالنغمات الموسيقية من
غير ألفاظ ! »

فقلت : « ذلك واقع لا يحتاج إلى التمني . ولقد وعيت كل
ما تهمس به هذه الألحان . غير اني لا أستطيع استماع غيرها هذه
المرّة لأن ضعفي يتزايد يوماً فيوماً . على الواحد منا أن يقبل

بالآخر كما هو على علاقته ، ولناسكة مسكينة عليّة مثلي أنت
تتوقع بعض الحلم من صديق مثلك . سنجتمع مساء غدٍ في
الساعة نفسها . أليس كذلك ؟

لمستُ يدها وممتُ بتقبيلها . ولكنها أوقفت حركة يدي
وضغطت عليها قائلة : « هذا خير . إلى الملتقى ! »

الذكري الخامسة

يتعذر عليّ التعبير عن أفكاري وعواظفي بعد عودتي الى البيت . هناك « أفكار بلا ألفاظ » يعزفها الانسان لنفسه في الساعات الخطيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشة فائقة . وصار مثل الهواجس والتصوّرات المخرقة ضميري كمثل التيازك الهابطة من الجوّ على الارض ما أدركت غايتها إلا بعد الانطفاء والاستحالة الى حجارة سوداء . وكما نقول لأنفسنا في الحلم أحياناً « أنت تحلم » كذلك قلت لنفسي « أنت يقظان . وهذه هي » . ثم حاولتُ استجماع خواطري ولمّ شعث فكري بقولي « انها لفتاة لطيفة ذكية الجنان وقادة الذكاء » . وأخذتني منها شفقة وطفقتُ أحصي ساعات هنيئة سأقضيها واياها في هذه العطلة .

(١) في هذه الاستعارة تلميح الى مجموعة قطع موسيقية لمدلسن المذكور في الفصل السابق واسمها « أغان بلا كلمات » Worte Lieder ohne . قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكثيبة الساهية . منها القطعة التي قال بطل الرواية في آخر « الذكري » الماضية انه عزفها (المعربة)

لكن لا ، لا . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت لباب خاطري ،
وذلك اللباب ان هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنه ، وفكرت
فيه ، ورجوته وآمنت به الى الآن . هذه نفس بشرية عذبة
كصباح الربيع ، عطرة كشذا البنفسج ، لامعة كلواحظ
الكواكب . لقد تبيننت منذ النظرة الأولى قيمتها المعنوية وكل
ما أودعت من بهاء وسناء ، ورحب كل منا برفيقه لأن
الروحين تعارفا . خيل الي ان « ملكي الحارس » مضى وتلاشى ،
وحاولت ان أناديه فلم تجبني نفسي إلا بما دلني على ان في العالم
مكاناً واحداً أجده فيه .

وبدأ لنا عيش رغيد ، اذ كنا نجتمع كل مساء فنعشعنا بمتانة
صداقتنا ورسوخها وأضحى ضمير الجمع « اتم » طفيلياً بيننا
فعمدنا بالمخاطب المفرد « أنت » نستعمله كأننا لم نفترق منذ
الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفة الاتهادي خيالها في نفسي ولم
أبسط فكرة الا أشارت مصادقة كمن يقول « هذا فكري ايضاً » .
كنت سمعت اعظم اساتذة الموسيقى في عصرنا يرتجل وشقيقته
ألحاناً على البيانو فأذهلني ان يتآلف فكر شخصين اثنين ويتوحد
شعورهما فيوضحان الهامهما الموسيقي في آن واحد على أتم انسجام
لا تخونها شاردة ولا تشد في ابداعها واردة . أما الآن فقد
اتسع فكري فأدركت . اتسع فكري فعلت ان روعي لم تكن
فارغة مدقمة قاحلة ، وانما توهمتها كذلك لاحتجاب الشمس عنها
وهي كقيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة .

ورغم ذلك كان الربيع حزيناً وخيِّمت منه فوق نفسينا أو شحة رمادية لأن شهر مايو ورونقه لم ينسنا أن الورود سريعة العطب وان كل مساء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقة . سبقتني هي إلى الشعور بذلك وذكرته يوماً دون أن تبدي أسفاً أو ألماً . فانقلبت أحاديثنا جدية هادئة ينيلها كل مساء يمر رصانة وجلالاً .

تمت أودعها مرة فقالت : « ظننت الموت قريباً عندما أعطيتك الخاتم ، ولم أتوقع أن أعيش هذه السنوات . ولكنني عشتها وتمتعت بالجمال كثيراً . كذلك تأملت شديداً . انما المرء ينسى هذا في السعادة . والآن وقد قربت ساعة الفراق فكل دقيقة توازي كنوزاً . مساء الخير . لا تبطئ غداً » .

دخلت عليها يوماً وعندها مصور إيطالي . كانت حديثها بالإيطالية ، ومع ان الرجل كان أقرب إلى العامل منه إلى الفنان كانت لهجتها لطيفة وديعة يخالطها شيء من الاحترام فتجلى لدي عندئذ شرفها الحقيقي أي شرف النفس لا شرف المولد . وبعد ذهاب المصور قالت : « أريد أن أريك صورة أصلها في قصر اللوفر في باريس . قرأت وصفها فشئت أن تنقل لي » ثم أرثني الصورة وانتظرت حكيم . وكانت تلك صورة كهل في الزي الألماني القديم ، تلوح على محياه سياء التفكير والامثال لقوة عليا وقد بدا في هيئته وأوضاع جسمه معنى الحياة العميق فلم أرته

قط في أنه عاش يوماً ولم تبدعه بخيطة مصور . كان اللون البني القائم متغلباً في الصورة ، على أن الجزء الخلفي استحضر مشهداً طبيعياً نيراً وظهرت في الأفق أشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء انما أوحى إليّ عاطفة هادئة استطعت معها التحديق في الرسم طويلاً . فقلت : « لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وإن روفائيل نفسه ليعجز عن إبداع صورة صادقة كهذه ان لم يعش صاحبها يوماً » .

أجابت : « صدقت . أما الغرض من هذا الرسم فهاكه : قرأت وصفه فعلمت أن اسم راسمه مجهول كما جهل اسم الأصل الذي نقل عنه ، لعلمه من فلاسفة القرون الوسطى . فرغبت فيه ليتم به معرض الصور في غرفتي . ولما كان مؤلف « اللاهوت الألماني » مجهولاً وليس لدينا منه صورة رأيتُ أن صورة وضعت لشخص مجهول بريشة مصور مجهول يصح أن تنوب عن مؤلف مجهول . فإن وافقتَ علقتها بين الواحي ودعوتها « اللاهوت الألماني » .

قلت : « فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما مثلت الصورة شخصاً أقوى من دكتور فرنكفورت وأعبس وجهاً » .

قالت : « ربما كان ذلك . ولكنني أنا الفتاة المتألمة السائرة إلى الموت استقيت من هذا الكتاب قوة وتمزية ، ولؤلؤه عليّ فضل كبير لأنه أعلن لي جوهر المسيحية في بساطته العجيبة .

شمتني ازاءه حرة في أن أومن أو أن أجدد لأنه لم يرغبني على أحد هذين ، وقبض عليّ بشدة فخيّل إليّ أني أدركت معنى الوحي للمرة الأولى . وأنت تعلم انه مما يحول دون ولوج باب المسيحية الحقّة ان التعاليم تبسط أمامنا كوحى علينا أن نؤمن به قبل ان يهبط الوحي على نفوسنا . وطالمسا قلقت لذلك ؛ لست أعني أنني شككت في حقيقة الألوهية وفي الألوهية عقيدتنا . غير اني لم أكن لأكتفي بإيمان خلعه عليّ الآخرون ، وحسبت أن ما تعلمته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيسار لا يستطيع أن يكون خاصتي ولي . الإيمان لا يعار واليقين لا يستعار ولا يجدي التمويه نفعاً . ولا بد من اقتناع شخصي نستند اليه ونتعزى به إذ لا أحد يجيا ويموت عن أخيه .

قلت : « لا ريب أن كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع إلى أن تعاليم المسيح عوضاً عن أن تكتسب قلوبنا شيئاً فشيئاً بلا إرغام كما تملك قلوب الرسل والمسيحيين الأولين فإننا نجابهها منذ حدثتنا كنصوص كنيسية قوية لا تقبل تردداً ولا ترضى جدالاً وتضطرننا إلى الامتثال لأوامرها امتثالاً مطلقاً تسميه إيماناً . فلا بد من تولد الارتياح عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل إلى التسامل وتجلّ الحقيقة . وعندما نصل إلى تلك الخطوة من السبيل فيتيسر لنا تحرير ايماننا المستعار المزعوم ، لتتصب في وجهنا أشباح الشك والإحاد والكفر وتوقف فينا نموّ الحياة الجديدة . »

فقاطعتني قائلة : « قرأت حديثاً في كتابٍ انجليزي أنت
الحقيقة تتجلى بالوحي وليس الوحي يتجلى بالحقيقة . وأنا
لاشعر بذلك تمام الشعور لدى قراءة « اللاهوت الألماني » . قرأته
فشعرت بقوة حقيقته القاهرة وأرغمت على الاستسلام . أوحيت
إليّ الحقيقة . بل أوحيت أنا الى نفسي ؛ وفهمت للمرة الأولى
معنى كلمة ايمان . أصبحت الحقيقة ملكي بعد أن أطالت التملص
مني لأن أقوال المعلم المجهول اخترقت كياني كتشع الضياء
وأثارت خفاياي جاعلة حيرتي اقتناعاً ، وظنوني المبهم
إيضاحاتٍ جلية . فصمتتُ على قراءة الأناجيل كما لو كانت هي
الأخرى مكتوبة بقلم المعلم المجهول ، وأبعدتُ عني ما استطعت
كونها أوحيت من الروح القدس بأعجوبة إلى الرسل ، وأنها
صودق عليها من مجامع الأساقفة والأحبار فاحتضنتها الكنيسة
باعتبار أنها الآية الفريدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ
بدأت أكتنه مع معنى الإيمان المسيحي معنى الوحي
المسيحي » .

فقلت : « من المدهشات أن اللاهوتيين لم يفلحوا بعد في حمل
البشر على جحود كل عقيدة كائنة ما كانت . ولكنهم فالحون
يوماً ان لم يحتج المؤمنون بعزمٍ قائلين « لكم أنت تبالغوا في
شروحكم وأحكامكم هذا الحد ولا تتجاوزوه » . كل دين يحتاج
إلى الدعاة ، ولكن لم يقم الى الآن دين واحد في العالم لم يزيفه

الكهنة، سواء أكانوا براهماة أو لاما^(١) أو كثة وفريسيين. أولئك يتخاصمون موردين شواهدهم وحججهم بلغة لا يفهمها من أبناء ملتهم عشر واحد من عشرة أعشار. وهوذا عن أن يستوحوا الإنجيل مرشدين الآخرين إلى استيحاءه ترينهم يجادلون لإثبات صحة الإنجيل وعصمته لا من حيث هو إنجيل انما لأنه دونه قوم ملهمون. وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردد والقصور؟ بأي حجة يثبتون إلهام أولئك الأفراد الى تلك الدرجة العجيبة ان لم ينسبوا إلى أنفسهم إلهاماً أعجب وأدهش؟ لا شك أنهم فرضوا هذا الاعتراض لذلك قصرنا موهبة الإلهام على أكثرية من آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة الجامع. غير أن هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب. اذ كيف نتأكد انه بين خمسين حبراً وأسقفاً ٢٦ كانوا ملهمين و ٢٤ لم يصلهم من الإلهام شيء؟ يجزم المتطرفون اليائسون أنه يكفي أن يلمس الملمم يد شخص ما لينتقل اليه الوحي والعصمة من الغلط، ويوقنون أن العصمة والوحي انما حفظاً في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) إلى أيامنا بهذه الوسيلة. ويعتقدون أن عصمة أولئك الغرباء الذين لانعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان، وعلى كل استسلام مخلص بالفساد، وتسكر كل بحث من أبحاثنا ان لم يتفق مع بياناتها وأحكامها. ورغم كل ذلك يبقى السؤال القديم في انتظار الجواب: كيف يدري فلان أن فلاناً ملهم لو

(١) « لاما » هو اسم كهنة البوذيين.

لم يكن له مثل ذلك الإلهام على الأقل ، هذا ان لم يجو إلهاماً
أوفى وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا حياز الوحي في أرواحنا
لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ » .

أطرقت لمحة ثم قالت « يصعب الجواب . وطالما فكرت في
كيفية استجلاء معاني الحب والتثبت من حقيقتها . كيف ندري
أن شخصاً يحب أو لا يحب ؟ ما وجدت إشارة واحدة من
إشارات الحب إلا كانت عرضة للتزوير والتقليد . فاهتديت أخيراً
إلى أن المحب وحده يميز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات
وأنه إنما يثق من حب القلب الآخر لأنه واثق من حب قلبه .
ولما كانت موهبة الحب شبيهة بموهبة الروح القدس (الوحي)
كان الملهمون وحدهم ان هم مسموعوا الرياح العاصفات حسبوها
أصواتاً من السماء وان أبصروا زهرات القرنفل زعموها ألسنة
نارية . والآخرون يخافون ، أو يغضبون ، أو يسخرون قائلين
« كلام عتيق ! أما نحن فنفسنا ملأى بخمرة جديدة » . بيد اني
أعود إلى ما أسلفت وهو أن كتاب « اللاهوت الألماني » هداني
إلى إيمانٍ استخرجته من حاجات نفسي فوجدت قوتي العظمى
في ما يراه غيري خطأً وعبثاً ، وهو أن الاستاذ لا يبسط رأيه
كقانون منظم بل ينثر أقواله كالزراع أملاً أن تقع بعض البذور
على أرض صالحة فتتضاعف الغلة أوفياً . كذلك أستاذنا الإلهي
(المسيح) لم يحاول إثبات تعاليمه بالبرهان ، لأن من حوى

الحقيقة الكلية استخف بالمظاهر وأعرض عن جميع صنوف
المباهاة والتعنت .

هنا ذكرت شواهد أسبينوزا وأدلته في « أخلاقياته » وطالما
فكرت في أن ذلك اللوذعي ما أكثر من شد خيوط شبكته
الفلسفية إلا لشعوره بضعف مذهبه ووهنه . فأجبت محدثي
« نعم . غير اني على ما أوحاه اليّ » اللاهوت الألماني « من
الخواطر المفيدة لا يسعني إلا الإقرار بأني لم أشاطرك كل اعجابك
بهذا الكتاب . ينقصه في نظري العاطفة الانسانية والطلاوة
الشعرية ، لا سيما وأنه خلا من حرارة القلب وجحد الواقع ولم
يحترمه . روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لأن تكون
أكثر من درس نظري يتحتم أن تعقبه العودة إلى الحياة العملية
بعزم وجرأة ، الى تلك الحياة الواقعية التي عرفها لوتر وعالج
منها المصاعب . لا غنى للانسان عن إدراك معنى العدم ، ولو
مرة في عمره ، ليعلم أنه ليس بشيء وأن أصوله بداية ونهاية ثابتة
عريقة في أصل يتعالى عن المحسوس ويحلّ عن الحصر . وهذا
الاتجاه نحو الله إن لم يقدنا في الحياة إلى كعبة آمالنا فهو يبقى في
نفوسنا وجداً مقيماً إلى مرجعنا ومستقرنا الأبدي . ولكن
البون شاسع بين هذا النوع من العباداة وبين انكار الخليفة كما
يفعل الروحانيون ، ولئن نشأ الانسان من اللاشيء أي من الله
وبه وحده ، فهو يعجز عن العودة إلى اللاشيء بقوته الذاتية .

والتلاشي الروحي الذي يكثر «تاولر» الألماني من ذكره لايفضل «الزرقانا» أو الفناء التوراني الذي يقول به البوذيون . تاولر يصرح بأنه لو استطاع حباً بالله وإظهاراً لخضوعه له أن يفنى فناءً لما تردد في أن يسجد أمامه تعالى ويتلاشى في عمق أعماق الهاوية . إلا أن الخالق لم يشأ فناء هذه الخليقة التي أوجدها . وقد قال القديس أغسطينوس أنه « في اقتدار الإله أن يتجسد إنساناً وليس في مقدور الإنسان أن يستحيل إلى إله » . فلا بأس بالروحانية درساً يفيد ونظرية تنير ، بها ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً . إنما ينبغي أن لا تبخر القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء الغالية في القدر . وامن أدرك العدم في نفسه عليه رغم ذلك أن يؤمن بأن ذاته الصغيرة إن هي إلا انعكاس الذات الإلهية الكبرى . جاء في « اللاهوت الألماني » :

« ليس كل ما تدفق من منهل الكمال بالجواهر الحق وليس له من جوهر في غير الكمال . ما هو إلا حدث أو بهاء ، أو مظهر محسوس . ليس هو الجوهر ولا جوهر له إلا في النار مبعث النور ، شأن شعاع الشمس وضوء الشمعة .

« ولئن كان ما فاض من الكيان الإلهي كلهيب النار إلا أنه لا بد أن يكون حقيقة إلهية في ذاته إذ قد يساءل المرء نفسه «وما هي النار بلا هيب، والشمس بلا نور، والخالق بلا خليقة؟»

وقيل أن الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله
إنما رغبته هذه كـرغبة آدم والشيطان .

« حسبنا علماً أننا نعكس الكائن الالهي لنجتهد في صقل
مواهبنا حتى يوم الكمال . يستحيل إخفاء النور الالهي من نفوسنا
تحت المكياج ، فلندعه إذاً يلمع ويشرق ويضيء ما يحيط بنا
ويبعث فيه الحرارة ، لنشعر بأن دماءنا تطهرها نار الحياة . وإذا
يحل قينا معنى قدسي رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم ،
وتذكرنا أصغر الواجبات بعلاقتنا بالله ، لا يلبث أن يصبح
الأرضي في تقديرنا مساوياً ، والزمني أبدياً كأن حياتنا بأكلها
حياة فيه تعالى ؛ ليس الله الراحة الدائمة بل هو الحياة الدائمة .
وأنجيليوس سليزيس مخطيء بزعمه أن الله لا ارادة له ،
في قوله :

« نحن نصلي أيها الرب الهنا لتكون مشيئتكم المقدسة
ولكن اسمع وعز : أيها المبتهل ، لا ارادة الله لأنه الراحة
والسكون » .

كانت الفتاة تصغي اليّ بهدوء وانتباه . فتأملت دقيقة ثم
قلت « القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك ،
وفي الأرض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو إلى الراحة
والطمأنينة لأن وحدتها تثقل عليها . قوداً أن يضمها السبات
والسكينة إلى أحضانها فلا يخسر العالم بذهاها ولا تأسف هي

لفراقه . تلك النفوس تتمزى في هذه الدنيا بالاتحاد بالله والاستغراق في ذاته الصمدانية ، وهي تفعل ذلك بداهة إذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الاطماع ما يزعج ويقلق . فتتوق إلى الراحة وتراها - كما يراها الشاعر الالماني - الخير الأسمى وترى الله راحة والراحة فيه . ثم اني أجذك ظالماً في نقد «اللاهوت الالماني» لأنه إن قال ببطلان الحياة الارضية فهو لا ينادي بحذفها . ويقول في مكان آخر ان السكنية والراحة لا يلتقيا الانسان قبل الموت ، إلا أنه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله ، لا يأتي أمراً بإرادته الذاتية بل بإرادة الله ، كأنه عزّ وعلا اختاره ليسكن فيه . و يقيني أن من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحضرة الالهية فيه ، غير أنه يكتم هذا السر الجليل في نفسه كما يكتم العاشق عن الملائ أسرار غرامه . أما أنا فظالماً شعرت بأني كشجرة الحور المنتصبه أمام نافذتي . هي ساكنة في المساء لا تهتز وريقة من وريقاتها ولا يتحرك من أغصانها غصن ، وعندما يمر بها نسيم الصباح فتترنح أوراقها ، يظل الجذع راسخاً هادئاً . وإذا يعود الخريف وتتناثر أوراق كانت بالأمس مفعمة حياة فيعثرها الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك مترقباً مجيء ربيع آخر . . . »

لقد ألفت الفتاة هذه الحياة الروحية فمحاولة اخراجها منها ثم . أليس اني أيضاً لم أفلح في التملص من هذا العالم السحري إلا بعد جهاد عنيف ؟ ومن يجزم بأنه ليس هو النصيب الأفضل

الذي لا يفنى وأتينا لسنا بضالين نحن الذين نعدو ونكذ لاقتناص
منافع تحطّ منا الهمة وتذبل القلب وتقرض الروح ؟

وهكذا كانت كل اجتماع يثير مذاكرة جديدة تكشف لي
وجهاً مجهولاً من نفس لا تسبر ولا تحد . لم يكن حديثها سوى
تفكير واحساس ينسجان كلاماً مسموعاً بدلاً من أن يتعاقبا في
وحدة الوجدان . ولم تكن آراؤها آراء بل أجزاء حية منها
عاشت معها أعواماً لأنها كانت توردها بلا إجهاد ، كبنية ملأت
حجرها أزماراً وقامت تلقي بها على العشب الأخضر . كانت
يسؤني أن لا أفتح كتاب روعي تقرأ فيه ملياً كما أقرأ في كتاب
روحها . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الأصلية في وسط أكاذيب
إتفاقية نقبلها مكرهين ، سمها ما شئت عادات ، أو أدباً ، أو
تكتماً ، أو مراعاة ، أو حكمة اجتماعية ! وما أقل من يفلح
في التفلت منها بين المخلصين المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر أن
حركاته انما هي وجه عارية ، ونقاب سخرية أسدل على ملامح
الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحب ، حتى وفي
الحب الذي نسكته قهراً ، وننكر عليه التهنيد والتلوي والارتعاد ،
ونخرجه الى التواري عوضاً عن التجلي في الاشارات وتقديم
النفس ضحية في النظرات ، نكذب في الحب الذي نسكته على
أن يهمس في هممة الشعراء . كم من مرة كدت أقول لها « أنت
لا تعرفيني يا بنية » ولكنني كنت أشعر بأن كلماتي لا تصدق
الصدق كله . فعولت على أن أترك بين يديها مجموعة أشعار

أرنولد التي وردت إلي حديثاً ، وسألته أن تقرأ قصيدة الحياة
الدفينة : وكان مغزاها الاعتراف بجبي . ثم جثوت قرب سريرها
وقلت « مساء الخير » . فردت بقولها « مساء الخير » ووضعت
يدها على رأسي . فجرت في أعصابي تلك الهزة المستحبة وهباً
مارقد في جوانحي من تذكارات الطفولة ، ولم أعد أستطيع
حراكاً بل ظلت أنظر في تينك العينين اللتين لا قرار لغورهما
حتى أفاض سلام روحها على روحي سلاماً . ثم نهضت ومضت
صامتاً ، ورأيت تلك الليلة في أحلامي حسورة طويلة تتلاطم
الرياح حولها دون أن تهتز عليها ورقة أو يتحرك منها غصن .

الحياة الدفينة

النور يعلو ويفخر حروبنا الكلامية : أنظري ، ها أن عيني
تراودها الدموع وأشعر بكآبة مبهمة تلتف حولي وتمدد .
أجل ، نحن نعلم أننا نستطيع أن نزح ونعلم ، نعم أننا نستطيع
أن نبسم ! ولكن في مهجتي حرقه لا تلطفها كلماتك الرقيقة ،
ولا تسكنها منك البسمات .

أعطيني يدك وأصمتي قليلاً ، ولتستقر على عيني نظرة عينيك
الصافيتين لأقرأ فيها ، يا محبوبتي ، آيات روحك !

أواه ! هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك واستماع صوته ؟

هل يحظر على المتيمين إظهار ما تكن قلوبهم ؟

كنت أعرف الناس يظنون بأفكارهم لئلا يتلقاها
الآخرون بهرودٍ وجفاء ، كنت أعلم انهم يحبون ويتحركون
مخدوعين خادعين ، متكبرين متستقرين ، غرباء عن البشر ،
غرباء عن ذواتهم ! انما القلب بعينه ينبض في كل صدر
بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أيسكت ذلك النهي الوهي
قلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ ، أيجب أن نخرس نحن أيضاً ؟
آه ! ما أسعدنا إذا حررنا قلوبنا ، ولو لحظة ، وحللتنا
قيود الشفاء لأن السر الذي أطبقها وختم عليها تقدر في
أعمقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الرجل طفلاً وكيف
يكون زهوقاً ، وكيف تتقاذفه المطامع فيخوض ميادين الشقاق
والنزاع حتى لتكاد تتحوّر شخصيته ، فلا يتمكن من وقاية
النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء وان أرغمها على الخضوع
لناموس الكيان ؟

ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا استطراد
السير الى الامام .

فننسى حركة ذلك النهر الدفين وان لازمناه وهو يجتاز عرض
البحار وكنا مثله مسوقين على الدوام .

ولكن كم من مرة في ازدهام السبل ،

وكم من مرة في جلبة المصارعة وضوضاء التقاتل

يتصاعد فينا الشوق فننتبه لحياتنا الدفينة :

ويتيقظ لدينا احتياج لصرف نار قنواتنا التي لا تعرف

السكون ،

ويضنينا توق الى البحث عن أسرار القلب النابض بعنفٍ في

أعمقنا لنعرف من أين تأتي أفكارنا وإلى أين تقصد !

كثيرٌ هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون

لكن ، وا أسفاه ! قل من يشغل القلب وقل من يفعمه

ويكفيه !

عالجنا الحم من شؤون الحياة فأظهرنا في كل فن حذفاً

ومهارة ؛

على أننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى ولم نسر في سبيلنا

الواحدة سوية ، ولم نفصح عن عاطفة من العواطف المتضاربة

في صدرنا ،

وباطلاً ، حاولت ان تتكلم وتتحرك خلال تلك العواطف

ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أقوالنا وأفعالنا بليغة وحسنة ، ولكن غير
صحيحة !

وإذ يثقل الألم علينا وطأة الجهاد نسأل صفائر الحياة قدرتها
المدهشة للوصول الى النسيان والسوان فتلي طلبنا إذ
نلتجىء اليها !

ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر تنهض ، الوقت بعد الوقت ،
من عمق أعماق الكيان كما من أرض قصية مجهولة ، تنهض أصوات
ملتبسة بأسة ، وقلنتشر أصداء طائفة ساجحة فتملاً أيامنا
كأبة وغماً

إنما - وهذا نادر الحدوث - عندما نضم في يدنا يداً محبوبة
ونقرأ بعينين يعدهها دخان الساعات ولهيها ، نقرأ يحلاء في عيني
شخص آخر ، وتداعب سمعنا الذي أصم ضجيج العالم نبرات
صوت عزيز -

إذ ذاك تنبسط الأنوار في أرجاء جناننا وتضرب
من جديد نبضات العاطفة الدفينة وتستقر لواظنا في
مخارجها ،

وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ، ونقف على ما نود
معرفة ، ويرقب الواحد منا فيض حياته ويسمع همها الشيتق ،
ويلس حركتها المتتابعة ، فيتمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع

بالشمس والنسيم، وأخيراً ، أخيراً يداهم ذلك الفيض الحار هدوء
حُببِس فيه الخيال المراءوغ المدعو بالراحة : نسمة باردة تهب على
وجهه ، وسكون غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛

إذ ذاك تتخيه عارفاً آكاماً أشرقت عليهاحياته وبجراً تسير
اليه أعمار الأنهار !

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكراً ودخل عليّ طبيب البلدة الذي كان بصلاحه وعنايته صديق كلّ نفسٍ فيها . شهد تعاقب جيلين اثنين من أهلها والأطفال الذين دخلوا العالم على يده وصلوا إلى دور الأبوة والأمومة وما زال يعاملهم جميعاً معاملة الأب لأبنائه . لم يتزوج مع أنه كان حتى في شيخوخته قوياً جميلاً . رأيتُه مذ عرفته كما يقف الآن أمامي وعيناه الزرقاوان الرائقتان يلمعان تحت حاجبيه وشعره الأبيض الكثيف يتلوى جعدياً ، وهو يلبس الجرابات البيضاء وهذا الخذاء ذا العرى الفضية ، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديداً . وعصاهُ هذه الذهبية الرأس كان يحملها بعينها أيام طفولتي إذ يقف إلى جانب سريري ليحس نبضي ويصف لي الدواء . ولقد تعددت الأمراض في حدائقي إلاّ أن إيماني بقدرته هذا الرجل كان كفيلاً بالشفاء ، لأنني لم أشك لحظة في كفاءته وسطوته على جميع العلل . فكان قول والدتي بوجوب استدعاء الطبيب يوازي عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصاً

بدلة . وما كان عليّ إلاّ أن أتناول أول جرعة من الدواء
لأشعر ببداية الشفاء والتحسن .

دخل الغرفة قائلاً : « كيف حالك يا صديقي الصغير ؟
أرى على وجهك دلائل التعب فلا تكثر من الدرس . ليس لديّ
وقت طويل للحديث . انما جئتُ أقول لك أن تكفّ عن
زيارة الكونتس ماري . لقد صرفتُ الليل قرب سريرها وأنت
علة اضطرابها فامتنع عن زيارتها إذا كانت حقيقة عزيزة عليك .
ستذهب هي إلى البرية قريباً وخير لك أن تسافر أنت أيضاً
وتغيب مدة . والآن عم صباحاً وكن أبداً ولداً صالحاً كما هو
عهدي بك » .

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظراً في عينيّ بعطفٍ
مستفهماً كمن يود سلب الوعد سلباً . ثم غادرني ليعود
الأطفال المرضى .

أدهشني أن يهتدي غريب إلى أسرار نفسي قبل أن أكون
على علم تام بها . غير اني لم أفكر في ذلك إلا عندما بلغ الطبيب
أطراف الشارع ، فجاش قلبي كالماء طال مكوثه على النار فغلي
فبجأة وفار وعلا حتى ضاق عليه الاثناء فتدفق .

كيف لا أرى صديقي بعد الآن وأنا لا أحيأ إلاّ ساعة

أكون قريبها ؟ سأقابلها هادئاً لا أتحرك ، وصامتاً لا أتكلم ، بل أكتفي بالوقوف عند النافذة وأنظر اليهسا وهي نائمة تحلم . كيف لا أراها ؟ وكيف يمكنني أن لا أراها ؟ بل كيف لا أودعها ؟ هي لا تعلم ، ولا تستطيع أن تعلم ، اني أحبها . وأنا لا أرجو شيئاً ولا طمع لي في شيءٍ وقلبي ينبض بانتظام في حضرتها . انما أحتاج إلى الشعور بوجودها ، أحتاج إلى استنشاق روحها ، وعليّ ان أزورها لأنها تنتظرني . ترى أيجمعنا القدر بلا مأرب ؟ ألسنت أنا تعزيتها ، وأليس انهما موضع راحتي ؟ أتدني الحياة بين روحين شأنها بذرات الرمل في الصحراء ثم تبعث بريح سموم فتتلاعب بضعفها وتذررها في الهواء غباراً ؟ أليس أن نفوساً سعدت بالتقارب والتفاهم تحافظ على سعادتها ، ولا تفصل بينها قوة ولو أسرفت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل ذلك الاتصال ؟ وقد تحتقرني الفتاة إن أنا جازفت بحبها وأجفلت لأول إشارةٍ اجفال تلك الشجرة عند دويّ الرعد في الفضاء .

توقفتُ بغتةً وإذا بكلمة « حبهسا » تتراجع كالأصداء في جميع أنحاء قلبي خفيفة مروّعة . « حبهسا » ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني إلا قليلاً ، وإذا استطاعت أن تحبني فعليّ مصارحتها بأني لستُ أهلاً لتلك النعمة . وأخذتُ

أفكاري وآمالي تتصاعد في جوّ نفسي ثم تهبط يائسةً كأطيّار
تحاول التحليق في بعيد السماء وهي تجهل أن الأسلاك ضربت
حولها سياجاً محكماً. ان لم تكن هذه السعادة سعادتني، فلماذا تحلّ على
مقربةٍ مني؟ ألا يصنع الله العجائب؟ ألا يصنعها كل يوم وكل
ساعة؟ ألم يصغ إلى صلواتي مراراً أرسلتها نحو علاه فعاتت اليّ
تحمل مساعدة المنكوب وتعزيةً للمضني؟ أنا وهي لا ننشد خيراً
دنيوياً، إلا أن نفسينا المتفاهمتين تودّان عبور هذه الحياة يداً
بيدي ووجهاً ازاء وجه، وأن أكون أنا عضدها في آلامها وأن
تكون هي تعزيقي أو حملي الغالي، وهكذا إلى نهاية العمر.
ولماذا لا يمد الله بعمرها وينعم عليها من أيامها بربيع بعد أوان
الربيع ويبرئ سقامها؟ آه! يا للصور العذبة تمرّ أمام عينيّ! هي
تملك قصر والدتها في «التيرول». هناك نمكث فوق الآكام
الخضراء في هواء الجبال النقي بين أصحاب لم تضعفهم المدنية،
بعيداً عن هموم العالم وجهوده حيث لا حاسد ولا عدول. هناك
ندرك بسلام غروب الحياة فتذوب أيامنا الأخيرة رويداً رويداً
كاحمرار الشفق لدى هجوم الظلام...

ترأت لي البحيرة القائمة بأمواجها الهادئة ترجع صورة
الجبال البعيدة يجلل الثلج أعاليها. وسمعت رنين أجراس
القطيع وأغاني الرعاة، وخلت الشيوخ والشبان متجمعين
عند المساء في مدخل القرية، وفوق هؤلاء جميعاً لحت

خيال الفتاة ساجحاً كملك حب وسلام ، ورأيتني دليلاً لها وصديقاً .

عندئذ صرخت بأعلى صوتي « يالك من غبي ! يالك من غبي ! أخارت قواك وذلّ شمك ، وبلغ بك الحق والغرور هذا المبلغ ؟ ألا تيقظ وأنهض ، وأذكر من أنتَ وأذكر فوقاً تحول بينك وبينها ! هي صالحة لطيفة تسرُّ برؤية نفسها منعكسة على مرآة نفسٍ أخرى . غير أن ثقته هذه الشبيهة بثقة الأطفال ، وكيفية تصرفها معك ومعاملتها لك ، كلها تم عن خلوّ فؤادها من عاطفة عميقة تحييكَ . ألم ترَ في ليالي الصيف المنيرة وأنت تائه وحدك بين أحراج الزان كيف يسكب البدر فضيَّ أشعته على كلِّ غصنٍ وكلِّ ورقة ، ويضيء بركة الأسماء ذات المياه القائمة فيشرق ممثلاً في كل قطرةٍ وجزء من قطرة ؟ ذلك موقف الفتاة ازاء ليل هذه الحياة ، ولئن نشرت في فؤادك نوراً ترتسم خلاله خطوط صورتها المأنوسة فلا ترجُ شعاعاً ، لا ترجُ شعاعاً حاراً لا دعماً ! لا ترجُ عاطفةً حارةً تشبعك وتحييكَ !

مثلت صورتها أمامي مثول الحياة ليس كذكرى بل كرؤيا ، فاستوقفني جمالها . ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي تفتننا به الفتاة الحسناء لأول نظرةٍ ثم ينقضي ويزول بزوال الربيع . بل كان جمال الانسجام والالتئام بين أجزاء كيائها ، وجمال الحركة الصادقة والتعبير الروحي ، ومعنى السكون

المقيم . ان جمال الشكل واللون الذي تمنحه الطبيعة بنات حواء لا يُرضي إلاّ إذا أظهرت صاحبته أهلية له بل وتغلباً عليه . وإلاّ فهو يغضب ويستخط كأنه رداء ملكي تجرره في المرسح بمثلة ذات فنّ خاملٍ سقيم . الجمال الروحي هو الجمال الوحيد يمدُّ الصورة الترابية الجامدة بالحياة والمعنى ويصير المنفر جذاباً والقبیح مليحاً .

كلما أمعنت النظر في طيف الحبيبة أدركتُ منها نبل الجمال وعمق الروح كأن الوحي بذلك الجمال يهبط عليّ بالتدريج . أو اه انها لفبطة ، انها لسعادة تلمس يدي ! وما غاية الزمن من تعذبي؟ أيريني قمة الهناء ثم يلقي بي غدراً في القفار حيث الرمال المحرقة والوحدة الموجعة ؟ ما الغاية من اكتشاف كنوزٍ تحويها أرضنا هذه ؟ أليس دوام الشقاء خيراً من أن يحبّ المرء مرة ثم يبقى إلى الأبد وحيداً ، ويرجو يوماً ليسحق اليأس قلبه دواماً ، ويلمح النور طرفه ليصرف حياته في الظلمات كفيفاً ؟ هذا ألمٌ يفوق الآلام البشرية بمجموعة بتامها .

طال تشتت أفكاري وتتابعها المشوش المختلّ ، الى أن هدأت عاصفة شعوري وتجمعت خواطري وانتظمت قليلاً قليلاً . يسمي الناس هذا الحمد تفكيراً ولكن التفكير في مثل ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار . وما هي نتيجة هذا وذاك ؟ هي تلك التي يشهدا الكياوي بعد أن

تتخذ العناصر أشكالها فيذمه أن نتائج التحليل تختلف عن مقدماته الاختلاف كله .

كذلك كانت الكلمة التي لفظتها بعد العودة من غيبوتي هي هذه « يجب أن أسافر » ! فجلست إلى مكثي وكتبت إلى الطبيب اني سأغيب أسبوعين وإني أترك الأمر له . ثم انتحلت عذراً قدمته لأبويّ وغادرت البلدة في ذلك المساء ووجهتي جبال « التيرول » .

الذكرى السابعة

ما أسعده فق ذلك الذي جال في أنحاء « التيرول » فتسلق
جبالها الشاهقة وهبط أوديتها العميقة برفقة صديق محبوب :
أليس أن حظاً كهذا يبعث فيه نشاطاً ويطيل منه العمر ؟ وما
أشقى ذلك الذي يجوب البراري والقفار والغابات والمدن وحده
لا ندیم له سوى أفكاره المؤلمة .

ترى ماذا يهمني من هاتيك الجبال المتجلية بجللها الخضراء ،
ومن هذه الوهاد الغائرة السوداء ، وتلك البحيرات الزرقاء ،
والشلالات المتدفقة تتكسر فيها خطوط الأنوار والظلمات ؟
عوضاً عن أن أنظر إليها ها هي تنظر إليّ وبها ذهول لدلائل
اليأس المرسومة على الوجه البشري المائل أمامها ، وذهولها
يسحق قلبي ويثقل عليّ انفرادي إذ ليس في هذا العالم الواسع
شخص يشفق إليّ ، ويرغب فيّ ، ويؤثرني على أي أحد غيري .
كنت أرقسد كل مساء واستيقظ كل صباح بهذا اللفظ المبرح ،
كأنما هو نعمة نفذت في سمعي واحتلت ذاكرتي دون أمل
في الجلاء .

دخلتُ ذات مساء إحدى الفنادق تعب النفس والجسد
وجلست بين الحضور فتوجهت اليّ أنظارهم ورأيت فيها خيال
الشفقة على هذا الغريب التائه في ديارهم . فأمضتني جراح قلبي
ومضيت أسعى تحت جناح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفقي
يشفق . وعدت إلى غرفتي في أواخر الليل وانطرحت على
مضجعي الملتهب مهتماً لنفسي بأغنية شوبرت المعروفة « حيث
لست موجوداً هناك السلام والطمانينة » . ومرت الأيام وحالي
في ازدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الضاحكين
ومشاهد الطبيعة البديعة الدائمة ، فصرت أنام ساعات النهار
بطولها وأصرف الليالي متجولاً من مكان إلى مكان . إلا أن
عاطفة قوية كانت تستولي عليّ فتحول أفكاري عن مجراها وتردني
إلى مخدعي ، وهي عاطفة الخوف أو احساس الخوف ، سمته
ما تشاء .

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء إذ أتسلق أكتاف
الأطواد في أدغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها بأمون ؛
فتتوتر أعصابي ويتيقظ بصري ويرهف سمعي فأرى أشباحاً
بعيدة مبهمة ، وأتوجس أصواتاً ذات همس ودوي وطنين تنبعث
من كل صوب ، وتتعثر قدمي في جذور انبثقت من شقوق
الصخور ، هذا ان لم تزلق في عطفة بلت تراها مياه الشلال ؛
فينكمش فيّ فؤادي القانط وتهزه قشعريرة البرد وليس لديه من
حرارة التذكار ما يدفعه ومن حلاو الرجية ما يتعمّل به . إن

من أخذه مرةً وجلُّ الليل لعالم بأنه وجلُّ يتناول النفس والجسد معاً .

لا أشك أن الخوف كان أول عذاب الانسان يوم ظن نفسه منسياً من الله . ثم تشدد وخف اضطرابه بتعاون أبناء الله فيما بينهم واتفاق كلمتهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الساحقة واليأس الصميم إلا عند ما يعوزه الحب والمعونة فيخال له أنه إنما انقطع عن شركة الأحياء لأن الله هجره وأغفل وجوده . يسأل الطبيعة وعجائبها فيلقى من سكوتها هولاً لا مؤاساة ، وينقل خطواته على الارض المتينة الصلبة فتترنح تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وان رفع بنظره نحو النور ينشره القمر صاعداً وراء احراج الشربين حسب أشعته رؤوس حراب تطعن مهج الصخور ، وخيوطه عقارب ساعة دارت دروتها زمناً ووقفت وقوفاً لا ينتهي .

النجوم تدور مسرعة في أبراجها السحيقة لا تلتفت إلى تعساء الغبراء فلا تعزية في مشهدها بل هو يزيد النفس شعوراً بالوحدة والهجران . وما من ساوى بمكنة في غير عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات بأسرها لا تشويش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم .

هاك الشلال ، يا أيها المتأمل ! فان تدفق أمواجه أنال الجلاميد على جانبيه حياةً وكساها بطحلبٍ ذي خضرةٍ قائمة ،

وفي ظل الجلاميد تختبئ تلك الزهرة النحيفة المدعوة « لا تنسني ا » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المتورات قرب كل ساقية وكل جدول في كل روض من رياض الأرض . وقد نون في أمكنتهن مراراً عديدة منذ أن نثر الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا نفاد لها . أحصيت جميع الخطوط في وريقات هذه الزهرة ، وُعدت جميع الذرات في كأسها ، وضبطت جميع ألياف جذعها فليس من قوة أرضية مها طغت وبطشت أن تزيد عليها أو تنقص منها فتيلاً . وإذا استعنا بالمجهر (المكروسكوب) لتبين عمل الطبيعة واكتشاف خفاياها في أدق أنواع إنتاجها وجدنا في أحشاء البنور المسادئة ، وفي البراعم والازهار والأنسجة والخلايا ، الناموس ذاته متكرراً متجدداً ، ويظل نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الألياف أبدياً لا يلمسه تغير ولا يلحق به تبديل . أنى توجهنا لقينا النظام الأوحده ، فالنفس من هذا العالم الصوري عين أحاطت بها المرايا ففقدت ذاتها في تكرار لا حد له ولا نهاية . وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد الأبد الذي يختلب ذهنك إزاء هذه الزهرة النحيفة .

ومناك في أعالي الفلك تجد النظام بعينه نافذاً في الاجرام الكبرى : فالأقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول

الشموس ، والشموس حول شمس أخرى وما السديم الخيالي
السحيق إلا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفتأ هذه
الكواكب العظيمة تدور في أبراجها لتُظفر الأرض بتوالي
الفصول فتتمكن الزهرة من البروز والنمو ، وتنسج منها الخلايا
وتنتشر الأوراق فقرصع هي وأخواتها بساط الحقول . كذلك
ينفذ النظام في الفراشة المتوسدة أحضان الأزهار . فان
يقظتها للوجود وتمتعها بالحياة وكيفية تنفسها ونموها لأعجب
من نسيج النبات ودورة الشموس . ونحن البشر نظير كل
كائن إنما يختص بنا النظام السكلي الخالد . فكم من موجودٍ
انتبه من غفلة العدم وتحرك وعاش ثم اختفى غير تاركٍ لمروره
من أثر !

فإذا كان الكل بموجوداته الكبيرة والصغيرة وما يدبرها
من حكمة وقدرة ، إذا كان هذا الكل بأعجوبة حياته وحياة
أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا أنت ترتعد وماذا تخشى ؟ أليس
الأحرى بك أن تنخر ساجداً مدركاً ضعف نفسك وعدمها ثم
أن ترفع عينيك نحوه واثقاً بحبه وعطفه ؟ أليس ان فيك شيئاً
أثمن من نسيج الأزهار وأعضاء الحفافيش وأبراج السيارات ؟
إذا كان ذلك ورأيت خيالك في صفحة الوجود محسّطاً بتألق
السكائن الدائم وشعرت بحضوره فوقك وتحته وفي داخلك وإنما
بذلك الحضور الإلهي يصبح الشبح منك إنساناً ، والقلق عندك

راحة ، والانقطاع اشتراكاً ، والانفراد واحسدية كبرى ؛
إذا كان ذلك وعرفت أنك تناجي إلهك إذ تصرخ في ليل
الحياة البهيم « أبتى ، فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على
الأرض وكذلك في » ! « فكيف لا تنقش عنك إذن غيوم
الأكدار ويبرز فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً ؟ ان لك
من الله يداً لا تهملك بل تظل تعضدك وتقودك عندما تهتز
الراسيات وتنطفئ الشمس . حيثما حلت تكن معه ويكون
معك وهو قريب اليك على الدوام . له الخليفة بورودها
وأشواكها ، وله الانسان بأفراحه وأتراحه « ولا يحدث شيء
إلا بإرادة الله وسماحه » .

بمثل هذه الخواطر كنت أسلي نفسي فأقبلها تارة فرحاً
وطوراً حزيناً . لأنه ان نحن بلغنا لحظة مقر الراحة والسلام
القائم في غور الروح فيتعذر علينا المكث هناك طويلاً . وكثر
من ينسى تلك الخطوة بعد الاهتداء اليها ، وينسى حتى السبيل
الفكري الممتد بين العالم وبينها .

انقضت الأسابيع ولم أتلق من فتاتي حرفاً . فساورني هم
جديد إذ قلت لنفسي « ربما توفيت وهي تستريح الآن في حوض
السلام الأبدى » فأقامت هذه الكلمات تحوم حول شفتي وكلمة
بالغت في ازديادها بالغت هي في إثبات معناها .

فعلام الازدجار وقد يكون حلّ المقذور؟ ألم يقل الطبيب
انها ضعيفة القلب وأنه يتوقع أن تفارق الحياة من يوم إلى يوم؟
فهل أعتقر لنفسي تهاونها إذا غادرت صديقتي الدنيا دون أن
أودعها وأبوح لها بحبي ولو في الساعة الأخيرة؟ ألا يتحتم عليّ
البحث عنها الآن لأستمع منها كلمات الحب والغفران؟ لماذا
يتردد الناس في قضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في
لحال ناسين ان كل دقيقة قد تكون الأخيرة وأن ما فقد من
الدين فقد فقد من الأبدية؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت أني لم
أرحل إلاّ لأنبت له أني قويّ صلب الإرادة وقد عزّ عليّ
الاعتراف بضعفي وباحتياجي إلى صديقتي . فاتضح لي الواجب
في الحال وهو العودة اليها على استعداد لقبول ما تبعث به الينا
السماء من فرح وترح ، وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابها إلى
البرية وقولها لي قبلئذ أنها اعتادت الاضطياف في قصرها في
التيرول . أتكون اذن على مقربة مني لا يفصل بيننا سوى سفر
ساعات قلائل؟ ما كاد يتضح الفكر حتى عاجلته بالتنفيذ .
فغادرت المكان عند انبثاق الفجر ووجدني الغروب أمام
قصرها .

وكان المساء هادئاً جميلاً وقد ضرب مجد الغروب فوق قمم
الجبال رواقاً عسجدياً فسبحت الهضاب في زرقة وردية ،

وتصاعد من الأودية ضباب رمادي فجعل يستحيل لامعاً
بلامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجوّ كبحر ضياءٍ
متحرك . وتعدّد تلك الألوان والأعيب هاتيك الأنوار كانت
يعكس على صفحة البحيرة المضطربة فتبدو فيها ذرى الجبال
مراقصة رؤوس الأشجار وسطح الكنيسة المستدير ، وكان
تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحدّ الفاصل بين عالمي
الحسوس والخيال .

استقرت عيناى على القصر القديم حيث أرجو الاجتماع بها ،
ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران صوت يقلق سكون
المساء . ان قلبي ليحدثني بلقياها ، أيكذبنى اليوم قلبي ويخونني
الرجاء ؟ مشيت متمهلاً فاجتزت البساتن الخارجى ووجدتني في
ساحة القصر حيث يسير الجندي الحارس ذهاباً وإياباً . بادرت
بالسؤال عن الكونتس فأجاب انها في القصر . فقرعت جرس
الدخول وانتظرت ، وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل إذ قد
يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أنا أجراً على ذكر اسمي لأني
قضيت الأسابيع الماضية قائماً في الجبال وقد أهملت أمر لباسي
وهندامي حتى صرت أشبه بالمتسولين . فساذا أقول ، وعمّن
أسأل ؟ لم يطل هجسي لأن الباب فتح وظهر منه البواب في
زيّ خدم الأمراء وحقق في مبهوتاً .

سألت عن السيدة الإنجليزية وصيفة الكونتس فقال انها

هناك. فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت إليها اني قدمتُ للاستعلام
عن صحة الكونتس .

فبعث البواب بالرسالة مع خادم سمعتُ وقع خطواته
المتباعدة في أهباء القصر وممراته ، وما تلاشت تلك الخطوات
حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر إلى مساعلي على
الجدران من صور أفراد الأسرة الراحلين : فرسان تدججوا
بالسلاح ، وسيدات ارتدين الزي القديم وفي وسطهن راهبة
بثوب ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه
الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر قط أن قلبياً خفقت
في هذه الصدور . وها ان ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتباً
ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعاً : « لقد عشنا نحن أيضاً وتألنا
مثلك » . نعم ، نعم تحت هذه الأسلحة دُفنت أسرار كالتى
تفطر الآن حشاشتي ، وفي صدر الراهبة ذات الثوب الأبيض
والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري .
خيّل إليّ ان العيون تطلّ عليّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت
الشفقة وحل الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلها : « أنت لست
مننا » ! وكانت تمرّ الدقائق فبنمو وجلي . إلى أن سمعتُ وقع
أقدام خفيفة . وإذا بالسيدة الانجليزية تشير إليّ بدخول إحدى
الغرف . فنظرتُ إليها مستفسراً لأقف على ما تعرف مما جرى
ولكنّ سلاحتها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجب أو

أي اهتمام خاص . وقالت بصوت رزين ان صحة الكونتس في
تحسن وانها ستقابلني بعد نصف ساعة .

مثلما يأمل الغريق بالنجاة بعد يأس الموت اذ يرى نفسه آمناً
على الشاطئ، عقب أن تقاذفته اللجج ، كذلك كان وقع هذه
الكلمات في نفسي . ها أنذا أدنو إذن من حقيقة جديدة وما
آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي هذه اللحظات ،
لحظات الغبطة المتناهية ، في حياة الانسان وألوف ألوف من
البشر لا يتذوقون هناءها . انما الأم التي تناغي رضيعها لأول
مرة ، والوالد الذي يذهب لاستقبال وحيدته عائداً من الحرب
وقد أثقلت جبهته أكاليل المجد والنصر ، والشاعر الذي تعترف
له أمته بالعبقرية وتحببته بالهتاف والثناء ، والشاب الذي يشعر
بأن يد فتاته تسيل حباً في يده ، أولئك وحدهم يدركون لذة
الأحلام اذا هي انقلبت حقائق .

مضى الوقت المعين فجاء الخادم وسار بي خلال غرف كثيرة
ثم فتح باباً فلمحت في نورالشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذة
عالية أطلت على البحيرة والجبال المتلظية الساطعة .

— « ما أعجب تلاقى البشر بعد الفراق الطويل » ! سمعت
صوتها العذب يلفظ هذه الكلمات فكانت كل منها برداً على
قلبي وسلاماً .

فردتُ كلماتها قائلاً : « ما أعجب التلاقي وما أعجب
الفراق » ! وأمسكتُ بيدها فأدركتُ أننا معاً وعلى مقربةٍ
الواحد من الآخر .

فقالت : « اذا هم افترقوا فما الذنب إلا ذنبهم » . قالت
ذلك وصوتها المنسجم النبرات عادةً كموسيقى سماوية ، يتهدج
قليلاً :

فأجبتُ : « صحيح . ولكن قولي لي أولاً كيف أنت ؟ هل
نستطيع التكلم ؟ »

فقالت باسمه : « يا صديقي العزيز ، أنت تعلم ان صحي
غير جيدة ؛ فإذا زعمتها متحسنة فعلتُ حباً بطبيبي الذي أنا
مدينة لعلمه وعطفه بحياتي منذ حدثني القصوى . وقد وقفت
حركة قلبي في احدى الليالي قبل مغادرتي المدينة فعانيتُ الماء
شديداً وحسبتُ تلك الحركة واقفة دواماً فراعهُ ذلك ولكنه
أمر مضى فلماذا نذكره ؟ شيء واحد يؤلمني : كنت أرجو أن
يعانقني الموت بلا وجع والآن أعلم أن الأوجاع ستعذبني ساعة
الرحيل وتفعم تلك الساعة مرارة . ثم وضعتُ يدها على قلبها ،
وتابعتُ « ولكن ، قل أين هذه الفيبة الطويلة ؟ ولماذا قطعت
عني أخبارك ؟ لقد أورد لي الطبيب جملة أسباب لسفرك الفجائي

فصارحته القول اني لا أصدقه في واحد منها . فذكر لي أخيراً
سبباً هو أدنى تلك الأسباب الى الغرابة . أتعلم ما هو ؟

فقاطعتها خوفاً من أسمع كلمة تؤلني وقلت : « قد يخال
السبب وهمياً وهو ليس بوهي . وهذا مضي أيضاً فلماذا
نذكره ؟ »

قالت : « لماذا مضي يا صديقي ؟ عندما ذكر السبب الأخير
قلت له اني لا أفهم ما تعنيان ؟ أنا فتاة عليلة بائسة وحياة
جسدي موت بطيء ، وقد أرسلت لي السماء صديقين يرثيان
لحالي أو يحباني - على زعم الدكتور - فأني شيء في ذلك يقلق
راحستي أو راحتها ؟ كنت أقرأ قصائد شاعري المحبوب
وردسورث قبيل محادثة الطبيب فقلت له : « يا طيببي العزيز إن
الأفكار كثيرة متنوعة والكلام المعبر عنها قليل فنرغم على
تصديق ما لا نقصد ولا يفهم الآخرون ماذا نريد باستعمال كلمة
واحدة فيؤلونها ما شاء الوهم والخيال . فلو سمع من يجهلنا انني
أحب صديقي الفتي وإنه هو الآخر يحبني لخالنا شبيهين بروميو
وجولييت ، ولو كان الأمر كذلك لوافقتك على وجوب
ملاشاته . ولكن أليس انك تحبني أنت أيضاً يا طيببي الشيخ كما
أحبك ؟ ولقد أحببتك أعواماً طوالاً ولا أدري هل بحت لك
بذلك قبل الآن . فما أنا بيانسة ولا أنا بشقية . وأقول لك انك
خصصتني بمودة شديدة وإنك تغار من صديقي الفتي . ألا

تأتيني كل صباح متفقداً حالي وأنت تعلم أنه لم يحدث شيء ؟ ألا
تقدم لي أجمل أزهار حديقتك ؟ ألم تحملني على إهداء صورتي
اليك ؟ وهناك أمر آخر قد يحسن كتابه ، ألم تدخل عليّ يوم
الأحد الماضي فجلستَ قربي وأنتَ تحسبني مستغرقة في النوم ،
وحدقتَ فيّ طويلاً فكانت نظراتك كأشعة الشمس تلثم وجهي .
ثم بكيت وأخفيت وجهك براحتيك وقلت بصوت يقطعه
الشهيق « ماري ! ماري ! آه ، يا طيبي العزيز ! صديقنا
الفتى لم يأت أمراً كهذا فلماذا أقصيته عني » ؟ قلت ذلك
بلهجة جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبته فتورد وجهه
خجلاً وأسفت لإيلام عواطفه . ثم أخذت كتاب وردسورث
وقلت « هذا رجل آخر أحبه بكل قلبي ، أفهمه ويفهمني مع
اني لم أره في حياتي . وأريد أن أتو على مسامعك احدى
قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويحبون وإن الحب بركة إلهية
ينزلها المحب على المحبوب فيفرش طريقه بالورد والرياحين » .
ثم قرأت له قصيدة « فتاة الجبال » . والآن يا صديقي الصغير ،
ادن السراج واتل لي هذه القصيدة ذات المعاني المنعشة . ان
روح الجبال الخفية تلامسها كما يلامس احمرار الشفق رؤوس الجبال
المكحلة بالثلوج البيضاء » .

تكلّمت فصارت عواطفني هادئة رضية جليلة . انتهت
العاصفة وانعكس طيف البنية كصفحة البدر على بحيرة حيي ،
بل على بحر الحب الشامل الذي يدعاه كل لنفسه بينما هو ينتشر

في كل مكان لأن منه حياة بني الإنسان . الحب بحر الحياة
الهاديء الثائر معاً في كل قلب ، المفرق بين القلوب والجامع بينها
بمأطفة واحدة ووله واحد . وددت أن أزم الصمت كالطبيعة
المنبسطة أمامنا . غير أن الكونتس دفعت إلي الكتاب
فقرأت : -

فتاة الجبال

« يا فتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناك الوحيد : أربعة عشر ربيعاً سكبت على وجهك بهاءها فحسبك هي ثروة وجاهاً .

« هذه الصخور الرمادية ، وتلك الأشجار الشبيهة بستار أسفر عن نصف وجه السماء ، وذيالك الشلال المهمم في أذن البحيرة المنصتة ، وذيالك الخليج الصغير ، وهذه الطريق الضيقة المؤدية الى مسكنك ، جميعها تخال مرسومة بخطوط الأحلام وألوانها . وأنا أباركك من أعماق قلبي ، يا فتاة يبعث جمالها في هذا النور الأرضي نوراً سماوياً .

« ليكون الله عونك حتى اليوم الأخير ! أنا لا أعرفك ولا أعرف ذوبك على أن العبرات تجول في عيني . سأذكرك في صلواتي بخشوع بعد ذهابي لأنني لم أر حتى اليوم وجهاً كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة والطف في طهر تام .

« تعيشين هنا بعيداً عن البشر كبذرة قذفت بها يد

الصدف ، فلا ترخين أجفانك خجلاً ولا ترتدي ملاحك احمرار
الحياء . على جبهتك تتجلى حرية أهل الجبال وصراحتهم ،
وفي ابتسامتك يبسم الجود والحنان ، وعطفك يتدفق تدفق
خواطرك المنعقدة من ذهنك وغم قيود جهلك وعلى قلّة متاعك
اللفظي . قيود تشعرين بها وتجاهدين في التغلب عليها فتجيء
اشارتك مفعمة نشاطاً ولطفاً معاً . كذلك رأيت مرة أطيّاراً
تصفق بأجنحتها المكافحة العاصفة .

« كل يد تقطف لك الأزهار ، أيتها الحسنة ، فيسا سعد من
عاش قربك في وادٍ صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس
كملابسك ويرعى الأغنام مثلك ! وهناك أمنية خير من هذه :
ولكن -

« أنت موجة من البحر الإنساني العجيب . لبت لي بعض
السلطة عليك وليتني من جيرانك لأتمتع بصوتك وأهناً بمرآك !
بل ليتني أخوك الأكبر أو أبوك أو أي واحد من أقاربك !

وأني لأحمد السماء التي قادتني الى هذا المكان المنفرد حيث
عرفتُ السرور . سأذهب حاملاً معي الجزاء لأن للذاكرة ميزة
كأنها ميزة النظر . فلماذا أكره الابتعاد ؟

« وها اني أفرح وأتألم في آن واحد لفراقك ، يا فتاة الجبال
الحلوة ! وسأحفظ أبدأ في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حية كما

أراها الآن ، كوخك الحقير ، والبحيرة ، والخليج ، والشلال
لا سيما أنت الروح المحيية جسم هذا الجمال .

وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى .
وإذا بصوتها العذب يتصاعد ككنغمة الأرغن ثنبه المصلي من
تأملاته العميقة ، فقالت :

« هكذا أريد أن تحبني يا صديقي ، وهكذا يحبني الطبيب ،
وعلينا أن يحب بعضنا بعضاً هذا الحب وأن يثق الواحد بالآخر
هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أظن أن العالم لا يفهم هذا الحب
فجعل بنو الإنسان هذه الأرض صحراء يقطنها القحط والكآبة .
لا بد أن الحال كانت على غير ما هي في غابر العصور وإلا لما
حدثنا هوميروس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحببت نوزيكا
أوديسس للنظرة الأولى فأسرت إلى صوحيباتها « حبذا الاقتران
به ! وليت المقام بيننا يطيب له » ! ولكنها خجلت أن تسير
مع غريب له هذا الجمال الباهر لئلا يقال انها بحثت عنه . فما
أبسط هذه الحكاية وأقربها إلى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب
رجوعه إلى زوجته وولده لم تتذمر ولم تشك بل امتثلت
واختفت ، ونحن القراء نشعر بأنها حملت أبداً في قوادها صورة
ذلك الغريب القوي الجميل . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب
الصادق وهذا الفراق الهاديء ؟ أما الشاعر المصري فيخرج من
نوزيكا حبيبة لقرتر لأن الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة

الزواج. أهذا هو الحب دون سواه؟ هل جفت ينابيع السعادة الطاهرة؟ ألا يريد الناس أن يعرفوا من الحب غير الخمر المسكرة ليتجاهلوا ينبوعه العذب الشافي الظمأ؟

فأردت تعزيز كلامها واستشهدتُ بالشاعر الإنجليزي القائل « ألا يحق لي أن أبكي لما فعل الإنسان بالإنسان »؟

فقلت: « ما أسعد الشعراء! كلماتهم تنطق العواطف الحرساء في ألوف القلوب وتندد الأصوات أناشيدهم لإظهار أسرار الجنان. فؤادهم يخفق في صدر الغني والفقير على السواء فيطرب معهم السعداء ويبكي التعساء لبكائهم. غير أن وردسورث أحبهم إليّ: من أصدقائي من ينفي عنه الشعرية. أما أنا فأحب منه اعراضه عن الاستعارات العادية، وتجنبه الغلوّ والمبالغة وما يسمونه « الطيرة الشعرية ». هو صادقٌ وأبيّ ميزة توازي هذه؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنثور تحت اقدامنا نثر زهرات الاقحوان في الرياض والمروج، ويسمي الأشياء بأسمائها، ولا يحاول إذهالنا وتغريتنا بل يرغب في اظهار الموجودات يزينا جمال الطبيعة قبل ان تشوهها يدُ الإنسان. أليست قطرة الندى على الحشيش الاخضر أتم بهاءً وأوفى ثناءً من وُلوةٍ ثينة صيغت في قالب الذهب؟ او ليس الينبوع المتدفق من صدر الأرض أجلّ وأبدع من مياه فرساي الاصطناعية على الاطلاق؟ أليست قصيدة « فتاة الجبال » ألطف وأصدق من

« ميلانة » جوتي و « هايدي » بيرون ؟ اني آسفة لعدم وجود
من يمائل وردسورث في جلاء الفكر وسذاجة التعبير بين
شعرائنا . قد كان يشبهه « شار » لو انه استوحى خفايا نفسه
بمثلا استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك « روكرت »
قد كان يداينه لولا انه آثر عيشة الرغد والرخاء بسين ورود
الشرق على سكنى وطننا الفقير . قلّ الجريء من الشعراء الراضي
بنفسه ، المقدم على إظهارها مجردة من الزوائد : ووردسورث
ذلك الشاعر . و كما نستمتع برضى إلى أعظم النوابع حتى
عندما لا يكونون أعظم أملا في مشاركتهم في الشعاع الساطع
المُنزل اليهم من شمس اللانهاية كما شاركناهم في أفكارهم العادية
المألوفة ، كذلك أحبّ وردسورث ونفسه حتى في القصائد
التي لم تضمن فكرة مستحدثة . لا بدّ لكبار الشعراء من نوبة
راحة يغيب فيها عنهم الوحي والبيان الخلاب . فقد نقرأ عند
هوميرس عشرات الابيات لا تزينها لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي .
بيننا بندرس الذي يستفزّ إعجابكم جميعاً يضعف احتمالي وينفذ
صبري بدوام ذهوله وافتتانه . اني لأضحى أثنى ما لذي
لأتكن من الاصطيفاف على شاطئ البحيرات حيث يقم
وردسورث فأزور معه الأمكنة التي أحبّ ووصف ، وأحيى
الأشجار التي حماها من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربه غياب
الشمس الذي أبدع في تصويره بالألفاظ إبداع مصورنا « ترنر »
في تمثيله بالألوان .

لم يكن صوتها ليهبط شأن الأصوات الأخرى في نهاية الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام ، كأنها الطفل القائل « أليس كذلك ، يا أبي » ؟ كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطبها بدلاً من أن يهوي عليه ، تمازجه أنة توَسَّلَ تجعل مخالفتها أمراً عسيراً .

فقلت : « وردسورث عزيز عليّ شاعراً وعزيز رجلاً . الأفكار في شعره آكام صغيرة تتسلقها بلا تعب بيناهي عند غيره جبال باذخة مخوفة بالصعاب والأخطار . لم أكن أكثرث له في البداية حين كان يذهلني أن يعجب به أكبر عقول انجلترا الحديثة هذا الإعجاب العظيم ؛ ولتكني اقتنعت بالتسالي ان شاعراً تنظر اليه امته نظرة الاكبار وتنزله من تقديرها تلك المكانة لجدير بأن يُدرس ويستقصى ، وإنما تجاهل وجوده خسران للمتجاهل . الإعجاب فنٌ لا يكتسب بلا دراسة وتمرين : فمن الألمان من لا يذوق راسين ، ومن الإنجليز من لا يفهم جوتي ، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير إلاّ فلاحاً خشناً . وما مغزى ذلك ؟ مغزاه أن طفلاً غريباً يفضل موسيقى الرقص على إيقاعات (Symphonics) بتهوئن ذات الفخامة والجلال . فن الإعجاب السميم قائم في اكتشاف أرواح الشعوب والتعمق في دراسة كتب تكبرها الامم ، ومن بحث عن الجمال عثر عليه وعلم أن الشعوب لا تعظم من نوابغها إلاّ من كان حقيقياً بالإعجاب ، وان الفرّس لم يكونوا مخدوعين في حافظهم ، ولا الهنود في

كاليدازا . لا يفهم الرجل العظيم من المجاهبة الأولى ولا يوصلنا
إلى اكتناعه غير المثابرة والنصب والعمل . ومن الغريب أن
ما يرضينا لأول نظرة لا يطول استحساننا له .

فقلت : « ولكن هناك سرأ يشترك في كتابه وإذاعته معاً
جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع أبطال العالم سواء أكانوا
فرنساً أو هنوداً أو رومان أو ألمان وأكاد لا أدري كيف أصفه :
هو فكرة اللانهاية المنبسطة أمامهم ونراها نحن خلال كلامهم
وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الأبدية ويؤلّهون
الاشياء التي نزعها صغيرة زائلة . أما سمعت غوتي ذلك الوثني
الصميم مفشداً كيف يؤلّه « السلام العذب النازل من السماء »
حيث يقول :

« انتشر السلام على الهضاب :
وبين رؤوس الأشجار الباسقات
لا أثر لهبوب النسيم .
وصغار الطير فائمة في الغاب
فانتظر قليلاً ، عما قريب
ترتاح أنت كذلك »

عندما نسمع أو نقرأ هذا ألا ترى أشجار الصوبر ووراءها
المسافة الفيحاء انتشرت فيها راحة لا تستطيع الأرض ان تنيلنا

إياها؟ فكرة اللانهاية تجدها أبداً في قصائد وردسورث ،
وذلك السر الكامن وراء الألفاظ والاسجاع والاوزان هو هو
الذي يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الأرضي
أكثر من ميكلائيلو الطلياني ؟ ولكنه فهمه لأنه علم أنه انعكاس
الجمال السماوي . ألا تذكر موشحه لحبيبتة فيتوريا
كولونتا : -

« قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا أرتاح على الأرض الى وجه سواه ؛
وبه أحيأ متعالياً بين الأرواح المصطفاة
وهي موهبة قل أن يتمتع بها الإنسان الفاني »



« ومع المبدع الذي أبدع صنعها ،
وبنعمته وبمساعده أرفع اليه خواطري
وأوقع على انسجام صنيعة أفكاري وأعمالي
لأحب بحرارة امرأة مليحة



وإن قصرت دون تحويل نظري
عن عينيها الجميلتين المتألفتين

بنور يدلني إلى سبيل الله ؛
ان قصرت وأحرقني اللهب علمتُ
ان تلك النار النبيلة المتأججة في قلبي
إنما هي انعكاس الشعاع السامي
الساطع أبداً في ديار المهد والخلود »

بدت عليها آثار التعب فأحجمتُ عن الكلام فاحترمتُ
سكوتها . ان قلوب الناس تميل إلى الصمت بعد تبادل الافكار
القيّمة ، ويخيّل أن الملائكة ترفرف فوق رؤوسهم . نعم خيل
إليّ أن أجنحة ملائكة الحب والسلام تخيّم في تلك الغرفة .
نظرتُ اليها فبدتُ بثوبها الأبيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابس
وإنما يدها المستسلمة في يدي أثبتت لي حضورها الحسي . وأرسل
الغروب المودع على محياها شعاعاً باهتاً ففتحت عينيها وحدثت
في مدهوشة مستفسرة . فسطع نور عينيها العجيبتين كبرق
خاطف بين أجفانها الوطفاء . وإذا بالبدر صاعداً بين الجبلين المقابلين
يسكب ابتساماته على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة . لم أر
حياتي مساء أبهى من ذلك المساء ووجهاً أجمل من ذلك الوجه —
وجه الحبيبة كما كان في تلك الساعة . فشعرتُ بموجة حب تطفو
فوق قلبي فقلتُ مثلاً « ماري ! دعيني أعترف لكِ بحبي وأنا بهذا
الفتون ! ألا تشعرين معي بقربنا الآن من السماء ؟ ألا فلتتحد
نفسانا بقوة لا تسطو عليها قوة ! دعيني أفضي اليك بحبي . اني

أحبك يا ماري كائننا الحب ما كان ، وأشعر بأنك لي
لأني لكِ .

جثوتُ قريبا ولم أجرأ على النظر إلى عينيها . فسحبتُ يدها
من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتسالي مسرعة مصممة .
فرفعتُ طرفي إلى وجهها فرأيت عليه أمارات الألم . وبعد
سكوت طويل تلملتُ وزفرتُ زفرة عميقة وقالت : « كفى ؛
لقد آلمتني ، على أن الذنب ذنبي والتبعة عليّ . أقفل النافذة
لأني أحس ببرد قارس كأن يداً غريبة لمستني . ابق معي - لكن
لا ، اذهب . وداعاً ، ونم يوماً هادئاً وابتهل إلى الله أن يشملنا
برعايته . سنجتمع مساء غد ، أليس كذلك ؟ » .

أواه ، أين ذهب الهناء وكيف ولتت الطمانينة ؟ خرجتُ
من الغرفة وبعثتُ بالسيدة الانجليزية اليها وهمتُ في الظلام .
مشيتُ طويلاً على شط البحيرة وعيناوي يرقبان نافذة الغرفة التي
ضمتني وإياها منذ حين . أخيراً خبتُ جميع أنوار القصر وتوسط
القمر كبد السماء وسقطت أشعته عامودياً على الأرض فبدأت
خطوط الشرفات والجدران من ذلك القصر كأنها أضيئت
بفانوس سحري . وبقيتُ وحدي في الليل الادم : أفكارني
موجعة ، وقلبي سقيم ، ونفسي منفردة لا يحبها ولا يريدتها في
العالم أحد . شمت الأرض نعشاً والسماء كفنناً يدور حولي ولم أدر
أحيى أنا أم ميتة قضى منذ زمن بعيد .

وإذ أطلتُ النظر إلى النجوم ذات المقل اللامعات ، وهي
تم دورتها بانتظام حسبتها منشورة في الفضاء لتثير القلوب المظلمة
وتعزي النفوس الأيسة . إذ ذاك فكرتُ في نجمين سماويين أشرقا
من عيني الكونتس ماري على أفقي الحالك السواد وسجدتُ
في فؤادي عاطفة الشكر والحنان لفتاتي العذبة وملكي
الحارس الأمين .

الذكرى الأخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها من النافذة ساعة استيقظت من رقادي . أهذه هي الشمس التي شيعتها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عند ما انبسط قرصها كيد صديق يبارك اتحاد قلوبنا ، ثم هبطت وتوارت كضجحل الآمال ؟ ها هي الآن مشرقة تأتي إلى كطفل يهنئي بعيد ميمون . لقد عادت إلى حيويتي المعتادة وتنبهت في الثقة بالله وبنفسي ، ترى أنا هو ذلك الفتى الذي انطرح على الفراش منذ ساعات قلائل مضني الجسد خائر الروح ؟

ما حالنا لولا سنة الكرى ؟ نحن نجهد إلى أي العوالم يمضي بنا هذا الرسول الليلي حينما نستسلم له بعيون مغمضة وليس من يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر . لقد تعلق الإنسان بأهداب الشجاعة والإيمان يوم تلقاه الصديق المجهول

فنومه النوم الأولى ، ولولا ما فطرنا عليه من ثقةٍ وامتثال
لأبي الواحد منّا ، رغم التعب والنصب ، أن يغمض عينيه
بمحض إرادته ويدخل بمملكة النوم . إنما هما الضعف والشقاء
تشدت علينا وطأتها فنلجأ إلى قوةٍ عليا ونرضخ للنظام البديع
النافذ في جميع الكائنات ، فتسعد إبان الرقاد بحل الروابط التي
تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة .

كل ما جرى بالأمس وكاف في ذهني مبهماً كضباب المساء
أصبح الساعة جلياً . شعرت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ
وأخت ، أو أب وابن ، أو خاطب ومخطوبة ، وأتينا لا يحول بيننا
انفصال . بحثتُ عن معنى ما يدعوه البشر « حباً » ووددت ،
كالشاعر ، أن أكون أخاها أو أبها أو أي قريب لها . وددتُ
أن أهتدي إلى اسمٍ يعرفني الناس به عندها لأن العالم ينكر من لم
يحمل اسماً وكنيةً . هي قالت انها تحبني حباً طاهراً يكنه قلبها
للنوع الإنساني بأسره وهو مصدر كلِّ صنوف الحب . غير أنها
خافت وتألّت لسماع اعترافي ، وهذا الألم وذاك الخوف اللذان
أتعساني البارحة هما اليوم في عيني حجةٌ راسخة على عاطفة
تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس الآخرين ونفوسنا
مغلقة على بحثنا ؟ ولماذا يستأسرنا ما لا نحسن تمييزه في الطبيعة
والأفراد والقلوب ؟ أمما الأشخاص الذين نعرف منهم جميع

الحركات النفسية والبواعث الفكرية فلا تنفعل بتأثيرهم ولا
نعيرهم التفاتاً ، وملا شيء يكلمح البهجة والرونق من محيياً الحياة
كزعم أولئك الماديين الذين يشرّحون المعاني ويحللونّها تحليلاً
علمياً لينفوا عجائب النفوس وأسرار الافئدة . انّ في كل كائنٍ
غموضاً يستحيل إدراكه ويتعذر تعريفه : أهو إلهام ، أو قدر ،
أو خلق ؟ لا الفرد يعي معنى ذلك الغموض المستتر فيه ولا
اهتدى الباحثون الى تفسيرٍ مقنع مرضي . وهكذا كل ما حملني
بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . وما زلتُ بقلبي
أعلمه حتى تبدّدت الغيوم من جوّ مستقبلتي السعيد .

خرجتُ إلى الهواء الطلق وإذا برسولٍ يحمل من الكونتس
كتاباً . عرفتُ خط يدها الجميل الرزين فرجوت في تلك
اللحظة أعز ما يرجوه العاشق . ويا لسرعان ما خابت آمالي !
سألتنني في الرسالة أن لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفاً
من المدينة ، ولم تخط كلمة مودة أو كلمة تطمين ، وإنما أضافت
حاشية معناها أن الطبيب يأتي غداً فاللقاء إلى بعد غدٍ .

يومان يمزقان من كتاب حياتي ! ويا ليتها لم يكونا فلا
أحتلمها فوق رأسي كسقف سجن مظلم . عليّ أن أصبر عليهما
ولست بخيراً في التصدّق بهما على ملك عوجل بالخلع عن عرشه ،
أو في التبرّع بهما لمتسوّلٍ يدور حول أبواب المعابد . أطرقتُ

وطال اطراقي ، فذكرتُ صلاة الصبح لأنت اليائس أحوج
ما يكون إلى الايمان ، وكالفارس يرى الهوة أمامه فيُحكم شدّة
اللجام ، قلت « فليكن ما لا مناص منه ! ولأقبلنه طائماً دون
تدمر فالله لم يخلقنا للغمّ والمرائي » .

ولماذا لا أتعزى بهذه السطور التي خطتها يدها ؟ ولماذا لا
أتعزى بأمل الاجتماع القريب ؟ سل من عالج السباحة يشرّ
بوجوب رفع رأسك فوق الأمواج ، وإلا فاغطس ولا تدع من
فمك وعينيك للماء سيلاً . ان لم ترضنا الحياة كواجب فلنقبلها
ونعالجها كفنٍ . كلنا هنا أطفال ، ولكن ما أغباه طفلاً يستسلم للغضب
أو يركن إلى العبوس كلما شعر بالألم أو حبطله مسمى ! وما أحبه
طفلاً إن بكى ظلت شمس السرور مشرقة في عينيه شروق
الزهرة الناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تتفتح
أوراقها ويفوح طيبها لأن حرارة الشمس تمتص عنها قطرات
المطر .

وعادت إليّ خاطرة فبدأت انفذها : ذاك اني طالما تمنيتُ
تدوين كل كلمة سمعتها منها وإثبات ما ائتمنتني عليه من جميل
الآراء . وها قد حان الوقت الملائم . فصرفت اليومين مستحضراً
ساعات اللقاء محيياً آثارها . وكنت قريباً منها شاعراً بحبها
كأني ممسك بيدها .

وما أعلى تلك الصفحات لديّ ! كم من مرة قرأتها وأعدت قراءتها ! هذه شهود سعادتي الغابرة ، يطلّ من بين سطورها عليّ وجهٌ معروفٌ وينظر إليّ صامتاً وسكوته أفصح من الفصاحة . يتلو عليّ ذكريات الأسي والهناء فيرجعني إلى الماضي وانطرح على مجموعة حوادثه كالأم على ضريح ولدها الميت منذ أعوام ولا رجاء لها بضمته إلى صدرها مرةً أخرى ، هذه العاطفة نسيماً حزنًا ، ولكنّ في الحزن غبطةٌ يعرفها الذين أحبوا كثيراً وتألّموا كثيراً .

سل الوالدة عمّا تشعر به عندما تسدل على وجه ابنتها العروس نقاباً لبسته يوم زواجها ، مفكرة في زوجها الذي أخذته المنية فحرمتها منه . سل الشاب عمّا يشعر به ازاء وردة ذابلة جاءت من حبيبته المتوفية وكان أهداها اليها قبل أن يفرق بينهما العالم . كلاهما يبكي وليست دموعهما دموع فرح ولا دموع ترح ، بل هي دموع ضحية قدّمت آلامها إلى الله بخوراً بعد فناء الآمال ، وقنعت بالإيمان والثقة بحكمته غير المتناهية .

ولنعد إلى التذكريات التي تجعل الماضي حاضراً : انقضى اليومان وجوانحي تختلج جبوراً كلما ولت ساعة فأذنت بقرب

اللقاء . وقد كثرت المركبات في اليوم الأول وجاء الفرسان من
المدينة فامتلاً القصر بالضيوف والزائرين وخسفت فوق قببه
الألوية وصدحت الموسيقى في ساحاته . وعندما أرخى الظلام
سدوله ازدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وترددت على
صفحة الماء أصدااء الأناشيد والأغاني . فأطلقت الإصغاء لعلمي
أنها هي الأخرى مصغية من نافذتها . وظلت الحركة والجلبة في
القصر إل ما بعد ظهر اليوم التالي حيث عاد الضيوف
أدراجهم ، وآخر مركبة عادت في المساء إلى المدينة كانت
مركبة الطبيب .

عندئذ ضاق صبري وفكرت « ها هي وحدها ، أشعر
إنها تفكر فيّ وتتمنى وجودي معها . أترك ليلة أخرى تمرّ
دون أن ألمس يدها فرحاً بانتها الفراق وابتداء التلاقي الجديد ؟
أرى في نافذتها نوراً فهل أدعها هناك بلا رفيق ؟ ألا يصحّ أن
أتمتع ولو هنيهة بحضورها العذب » ؟ وجددتني فجأة أمام بابها
وقد ارتفعت يدي لقرع الجرس . فتوقفت قائلاً « ألا سحفاً
للضعف والتبدّل ! إن أنا دخلت عليها الآن وقفت أمامها
خجلاً كسارق يتوارى بالظلام . سأتي إليها صباح غدٍ ، سأعود
إليها كبطل استحق أن تضفر لجبينيه الكليل الحب .

جاء الصباح وذهبت إليها . أواه ! لا تقولوا ، أيها

الروحانيون ، ان الروح تحيا بلا جسد ! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان إلا حيث يتوحد الروح والجسد فيصيران روحاً جسديةً وجسداً روحياً . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من الروح ؟ أليس إنها تبرز. بقدره الفكر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك الفكر هو روحها ولكنه أبكم فيها بينما هو ناطق في الإنسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معاً ، والاجتماع الحقيقي اجتماع الأرواح الأجساد جميعاً . أما العالم الذي عشت فيه سعيداً يومين كاملين فقد اضمحل الآن كالخيال ، أو كتنهد العدم ، لأنني الساعة أراها بالروح والجسد .

تمنيت أن أضع يدي على جبهتها وأمس أجفانها لأثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائمة حول روحي ليل نهار ، بل كشخص غير شخصي يحبني ويتوق إلي ، شخص أثق به ثقتي بنفسي ، بعيد عني إنما أقرب إلي من نفسي وبدونه ليست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى لهات ضائع في الفضاء غير المتناهي .

استقرت عليها طويلاً أنظاري وأفكاري فشعرت بتكامل الحياة فيّ ولم يعد يرهمني الموت لأنه لا يقوى على إفناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبه متانةً ونبلاً .

ما اعذب السكوت قريبا وقد تجلت نفسها في وضع أعضائها
و مجموع هيئتها وتتابعت السرائر في عينيها ! بقيت صامتاً وشيء
في بصفي كأنني سمعتها تهمس في قلبها « انك تؤلني » . ثم بعد
هنية « هل اجتمعنا مرّة أخرى ؟ كن هادئاً ولا تيأس ،
لا تسأل ولا تستفهم ، اني أرحب بك فلا تسخط عليّ » . كل
هذا قرأته في عينيها ولكنها لم تتلفظ بكلمة منه . وفتحت
شفتيها أخيراً وقالت بصوت متهدج : « ألم يصلك كتاب من
الطبيب ؟ »

أجبت « كلا »

فقلت : « الأفضل إذن أن تسمع الخبر مني . اعلم يا صديقي
أنا نلتقي اليوم للمرّة الاخيرة . فلنفترق بلا تدمير . لقد أسأت
اليك عن جهل إذ كيف أعلم أن للنسيم العليل من القوة ما يسقط
عن الزهرة وريقاتها ! كنت قليلة الخبرة فلم أتوقع أن توحى اليك
فتاة بائسة نظيري سوى عواطف الرحمة والإشفاق . ولقد
أنزلتك على الرحب والسعة لأنك صديقي منذ أعوام طويلة ،
وسعدت بقلبياك ، لماذا أخفي الحقيقة ؟ لأنني كنت أحبك . إنما
المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به . لقد فتح الطبيب عيني
وأخبرني أن حكايتنا شائعة تنتكّه بتفاصيلها أندية المدينة ،
وكتب إليّ أخي الامير يسألني أن أقطع كل علاقة بيني وبينك .

ان أسفي لأملك شديد . ولكن قل أنك تعفو عني ، ولنفترق
صديقين كما التقينا .

قالت هذا وأسبلت أجفانها لتخفي عني دموعها . فأجبت :
« لي يا ماري حياة واحدة وهي قريبك ، وإرادة واحدة وهي
إرادتك . أحبك بجرارة الحب وحرقتك ، ولكني لست أهلاً لك .
أنت أرفع مني مقاماً وشرفاً وطهراً فكيف أرجو أن أدعوك
يوماً زوجتي ؟ وليس ثمة من وسيلة أخرى للسير معاً في سبيل
الحياة . ماري ، أنت حرة وأنا لا أريد أن تضحي لأجلي شيئاً
ما . العالم واسع وإن أردت الفراق فلن نجتمع . ولكن إذا
شعرت بحب لي وبأنك خاصتي فاعرضي عن المجتمع والنسي
أحكامه اليطهء ، ودعيني أحملك على ذراعي إلى الهيكل فأجتو
هناك وأقسم أن أكون لك في الحياة والموت . »

فأجابت متمهلة : « تمني المستحيل حرام يا صديقي . لو
شاء الله أن يجمع بيننا لما بعث إليّ بهذه الأوجاع التي تجعلني
طفلة عاجزة بائسة . لا تنس أن ما ندعوه قضاءً وقدرًا ، أو
ظرفًا ، أو فروقاً اجتماعية إنما هو في الحقيقة إرادة الله ، ومن
طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غرأ داعياً إن لم
يكن شاذاً أثيمًا . إنما الناس على الأرض كالكوكب في عرض

الفضاء يسلكون سبيلاً خطتها يد الله فإن تواجهَ فيها اثنان
فذاك إلى حين ثم يفرقان مستيرين . وباطلاً يحتجان ويقاومان
فنظام الكون باقٍ على ما هو إلى الأبد. أنا لا أرى موضع الخطأ
في حيي لك. غير أن الآخرين يرونه فحسي يا صديقي. ولنمثل
بتواضع وإيمان .

كان صوتها هادئاً يئن فيه الألم العميق ، ولم أشأ أن أتخلى
عن الجهاد منذ الخطوة الأولى ، فضبطت انفعالي ما
أمكن لئلا أتهور مجازفاً بكلمة تزيد في ألمها وقلت
« تقولين ان هذه مقابلتنا الاخيرة فدعيني أعلم لمن نصحي
ذواتنا . لو خالف حيننا نظاماً علوياً لامثلت معك
بتواضع وإيمان . ولكن الحب هو ارادة الروح السامية وتسخير
تلك الارادة هو انكار ارادة الله . طالما حاول الانسان تخادعة
الله كان دهائه كفيلاً بتضليل الحكمة الربانية . وهذا محض
جنون نصيب من اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه
من عاقبة سوى أن يسحق ويتلاشى . لا شيء يقوم في وجه
حيننا غير التقول والافتراء ، فما هو التقول والافتراء ؟ أنا أحترم
أنظمة المجتمع ، أحترمها حتى في تشعبها وارتباكها الحالي لأن
الجسم العليل لا يشفى بغير العلاج المركب . وبدون الفروق
الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها

يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية وجدنا على الأرض لننتهي اليها . فيتحتم اذاً توضيح الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة ، وكأهل أثينا الذين كانوا يرسلون كل عام سفينة مشعونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً ، علينا أن ننحر الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الاجتماعي . ولكن ثقي أنه ليس من قلب حساس رقيق إلاّ تعذب وتفطر ، ولا من رجل ذي إدراك وشعور إلاّ وأرغم على اطباق جناحي حبه ليسجنه في القفص الاتقاسقي الضيق وذلك حادث أبداً قديم جديد . أنت لا تعرفين المجتمع . ولكني لو قصرت الكلام على أصحابي لأسمعتك من المفجعات ما يملأ أسفاراً : أحب أحدم فتاة فأحبته هي كذلك . ولكنه كان فقيراً وكانت هي غنية ، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب والشتم وكانت النتيجة انسحاق القلبين . لماذا؟ لأن المجتمع يرى منتهى الحطة والذل في أن ترتدي السيدة ثوباً مصنوعاً من صوف النبات الأمريكي وليس من نسيج الدودة الصينية .

« أحبّ آخر فتاة فأحبته أيضاً . ولكنه كان بروتستانياً وكانت هي كاثوليكية . فقامت عليها قيامة الكهنة والامهات وانسحق القلبان . لماذا؟ لأنه حصلت مناورات سياسية بين

تشارلس الخامس وفرنسيس الاول وهنري الثامن منذ
ثلاثة قرون .

وأحب غيره فتاةً فأحبهتُ هي أيضاً . ولكنه كان شريفاً
ولم تكن هي ذات حسب ، فتصلبت ككبرياء اخوته وأهلبت
الغيرة اخواتها وانسحق القلبان . لماذا؟ لأن جندياً قتل آخر
كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الاعوام
فأغدق عليه مولاة الالقياب والرتب ، وها ان حفيده اليوم
يفكر عن ذلك الدم المسفوك بخلق نخره الفساد وصحة ترعى
فيها العلل .

« يقول علماء الاحصاء ان عدد القلوب المتفطرة يوازي عدد
الساعات . وأنا أميل إلى التصديق ، لماذا؟ لأن المجتمع ينكر
كل حب بين غريبين ان لم يرتبطا برباط الزواج . فإن أحببت
فتاتان رجلاً ضحيت إحداهما ، وإن أحب رجلاً امرأة تحتم
أن يضحى أحدهما أو أن يضحيا معاً . لماذا؟ لماذا يحظر على
رجل حب فتاة ليس له أن يقترن بها . أكل الحب في أن
يهرب الرجل بالمرأة كأنها غنيمة حربية؟ أراك تغمضين عينيك
فأدرك أنني أطلت الكلام . لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة ،
فاسمعي يا ماري . فلنستعمل لغة العالم عندما نكون فيه متكلمين
ممثلين فاعلين . ولكن فلنحفظ بعيداً عنه محراباً طاهراً يختلي

فيه قلبان صادقان ليتكلمتا بلغة الحب والاخلاص دون أن يتأثرا
بغضبه أو يكثرتا لصواعقه . والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة
من قلب أدرك حقوقه وعرف عظمته فأثر على الاحكام البلاء .
لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حل اعتدالها لأنه حسن أن
تعرش « اللبلابا » بألوف الاغصان والجمال على الجدار القوي .
ولكن حذار من الافراط لئلا يجسد النبت الطفيلي متنفذاً إلى
داخل البنيان فيفسد إحكام أجزائه ويهدم متانة أركانه . ان
حبنا لا يضره بشراً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفعنا
إلى عرش مبدعنا . فاتبعي مشورة قلبك واصغي إلى صوت
ضميرك ثم أجيبي . ماري ، كوني لي اعلمي ان الكلمة المرتعشة
الآن على شفئك انما هي حكم عليّ وعليك بالسعادة أو
بالشقاء .

صمتٌ وضغطتُ على يديها فضغطتُ على يدي بأنامل ملتبهة
وقد بدا التأثر في وجهها وحركاتها . والسماء الزرقاء المنشورة
فوق رأسي لم أرها حياتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدّدتها
الزوبعة وأنفذت إليها الغيوم واحدةً بعد أخرى .

ثم قالت كمن يتعمد تأجيل القرار النهائي: « ولماذا تحبني ؟ »

أجبت « بل سلي الطفل لماذا ولد ، والشجرة لماذا أزهرت ،

وسلي الشمس لماذا بزغت فأناارت الكون ا لماذا أحبك يا بنية ،
لأنه يجب أن أحبك . وإن شئت إسهاباً فدعي الكتاب الذي
تحبين يتكلم لأجلي :

« أفضل الناس يجب أن يكون أعز الناس اليئسا دون أن
نعماً بما يلحقنا بسببه من ربح وخسارة ، أو مساعدة وإهمال ،
أو شرف وذل ، أو ثناء ومذمة ، أو أي أمر من الامور .
أحسن الاشياء وأشرفها يجب أن يكون أعزها اليئنا لا لسبب
آخر سوى أنه الاحسن والاشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء
حياته الداخلية والخارجية لأن بين الاشخاص تفسيراً فيكون
هذا خيراً من ذلك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الاسمى
الذي يتجلى في أفراد أكثر منه في غيرها . والفرد الذي يكثر
فيه تجلي الخير الاسمى هو الاحسن ، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو
الأقل حسناً . فعلينا أن نتنبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى
إذا اهتدينا إلى خيرهم أحببناهم وأعزناهم والتصقنا به طلباً
للالتحاد الدائم » .

« وأنتِ ، يا ماري ، خير من عرفت لذلك أحبك وأنتِ
عزيزة عليّ . وكلانا يحبُّ الآخر . فقولي الكلمة الواحدة التي
تكبر وتحيا فيك - قولي أنك لي ا لا تخوفي قلبك ولا تخدعي
عواطفك . أعطاك الله حياة معذبة ثم أرسلني اليك لأخففها

عنك ؛ فأملك ألمي ، وسنحمل هذه الآلام معاً بشجاعةٍ كما
تخترق البحر السفينة العظيمة رغم عواصف الحياة وأعاصيرها
حاملة الأثقال الباهظة وتوصلها إلى الشطّ الأمين . تكلمي يا بنية
وضمي رأسك على ساعدي .

فهدأ روعها وخضب الاحمرار وجنتيها كما تخضب حمرة
الشفق رؤوس الجبال ؛ ثم فتحت عينيها البرأقتين كشموس
منيرة وقالت : « أنا لك . أنا خاصتك لأن تلك مشيئة الله .
اقبلني كما أنا : فسأظل لك ما حييت وليجمعنا الله في حياة أبهج
من هذه وليكافئك خير مكافأة !

وضعت قلبي قرب قلبها ليخفقا سوية ، وأوقفت شفثاي
الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتني كما أوقف الزمان
دورته ، وتلاشى العمام حولنا ولم يمكث فيه غيرنا برهة خلتها
دهراً - دهر غرام وهنساء . ثم زفرت زفرة عميقة هامسة
« اغتفر لي يا ربي كل هذه السعادة ! والآن اذهب ودعني
وحددي لعلنا نلتقي مرة أخرى ، يا صديقي ومحبوبي ومستودع
غبطتي » !



هذه آخر كلمات سمعتها منها . عدت إلى غرفتي ونمت نوماً

طويلاً مثقلاً بالأحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل عليّ
الطبيب وقال : « لقد انتقلت ملكنا الطاهر إلى حضن خالقها .
وهذه وديعة منها اليك » .

فضضتُ الكتاب فوجدت فيه ذلك الحسام المنقوش عليه
« كما يشاء الله » وكانت أعطتني في طفولتي ثم رددته اليها ،
وكان ملفوفاً بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهمت بها ساعتئذ
« كل ما لك هو لي - خاصتك ، ماري » .

جلست وجلس الطبيب وغرقنا في بحرانٍ عقليٍّ يعرفه كل
من فوجيء بيأس لا رجاء بعده . أخيراً نهض الشيخ ومسك
بيدي قائلاً - « نحن نلتقي اليوم للمرة الأخيرة: أما أنت فعليك
أن تغادر المكان ، وأما أنا فأيامي معدودة . غير اني أود أن
أبوح لك بسر حملته دفيناً في صدري طول الحياة ولم أطلع عليه
أحدًا ، والآن بي حاجة ماسة إلى افشائه ، فاصغ إليّ . ان
الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا
قلب صادق عميق . عرفت قلباً آخر كهذا وروحاً كهذه الروح -
بل أبهى منها ، هي روح والدتها . عرفت والدة هذه الفتاة قبل
زواجها فأحببتها وأحببني . كنا فقيرين فأنشأت أجد وأكده
لأنتم لها من مخالب العوز والفاقة ولأصل إلى مكانة اجتماعية تليق
بي وبها . وقبل أن أدرك غايتي اجتمع بها الامير الشاب وأحبها .

ولما رأيت أمير بلادي مولعاً بها يبذل ما في وسعه ليعلني شأنها ويرفعها ، هي اليتيمة البائسة ، الى مرتبة الإمارة - شعرت بوجوب تضحية سعادتي لأجلها لأن حيي لها كان أقوى من حيي لنفسي . ففادرت البلدة وتركت لها خطاباً فيه حلتها من وعودها . ولم أرها بعد ذلك إلا وهي على فراش الموت عقب ولادة ابنتها هذه . يمكنك بعد هذا الإقرار أن تدرك مقدار حيي لحبيبتك وإني إنما كنت أحاول إطالة عمرها يوماً فيوماً لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يربط قلبي بالأرض .

« والآن ا سر في طريقك يا بني واحتمل الحياة كما احتملتها ، ولا تصرف يوماً واحداً في الغم العقيم . ساعد ما استطعت المحتاجين من إخوانك البشر ، وأحبهم جميعاً ، واشكر الله الذي أنعم عليك في هذه الحياة الجرداء بقلب كقلبها ، وحب كحبها ، وروح كروحها - وإن فقدتها »

فقلت ممثلاً : « كما يشاء الله » . وافترقنا افتراقاً لم يكن بعده من لقاء .



لقد مرت الأيام والاسبوع والشهور والاعوام سابحة في بحر الابدية . وطني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء أصبحت وطني . لكن حب فتاتي لا يزال حياً في . وكما تسقط دموع القلب على مياه البحار كذلك غرق حيي لها في بحر حيي للإنسانية

بأسرها - حبي الذي يشمل ملايين من أولئك الغرباء الذين
لا يعرفونني وقد شغفت بهم منذ حداثني .



إنما في أيام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما أخلو
بالغابة الخضراء في حضن أمي الطبيعة ، وتتوه في أفكاري فلا
أعود أدري ما إذا كان في المسالم اناس غيري أم أنا ووجدت
وحدي على الارض ، ذاك تحدث حركة في مقبرة حافظتي وتنهض
الذكريات السحيقة من مدافنها وترجع قوّة الحب القديم قابضة
على فؤادي بشدة فأنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي إلي وتحدق
فيّ مرة أخرى بعينيهما العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذ
يتجمع حبي للإنسانية ويتجسّم في حبي لشخصها - لشخص
ملكي الحارس . فتخرس أفكاري وتجتو عواطفني أمام سر
الاسرار الغامض ، سر الحب المتناهي وغير المتناهي .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١١	مقدمة
٢٢	العلامة اللغوي مكس مولر
٢٩	مقدمة المؤلف
٣١	الذكرى الأولى
٣٧	الذكرى الثانية
٤٥	الذكرى الثالثة
٥٢	الذكرى الرابعة
٦٣	الذكرى الخامسة
٨١	الذكرى السادسة
٨٨	الذكرى السابعة
١٠٢	فتاة الجبل
١١٣	الذكرى الأخيرة

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

كلمات وإشارات جأ	باحثة البارية
كلمات وإشارات جء	وردة اليازجي
ظلمات وأشعة	عائشة تيمور
الصحائف	بين البحر والمد
سوانح فتاة	المساواة
ابتسامات ودروع	غاية الحياة
رجوع الموجة	أحب في العذاب

الابتسامات ودموع

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي
أشجى من صوت مي زياده.
وليس من فكر فكركها يلتهم فيضيء داعياً إلى الحرية
والتقدم مجازة لركب الحضارة في شتى الميادين
والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأعلام المستنيرة
إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي
المضمون الفكري، فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة
العربية إلى الحياة، وطموح الأمة إلى الدخول في حركة
العصر وبناء المجتمع والوطن.

... ابتسامات ودموع عن هذا الكتاب الرائع
كتبت مي تقول: ستحب هذا الكتاب سواء كنت معلماً
أو متعلماً فيلسوفاً أو شاعراً، سياسياً أو تاجراً، سعيداً
أو شقيماً، كبيراً أو صغيراً. ستحبها فيه وبه كما حبيت ...
وسينتزك من ميدان المزاومة والمنافسة والحقد
والتهكم والحسد والإجهاد، إذ هو يمثل لك فصلاً من
ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آن واحد.

حسبه أن ينبه فيك الذكريات الحلوة المرة من
مباغئات الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع
وهي إرث بني الإنسان اجمعين.....

الناشر

To: www.al-mostafa.com